الممالك الحليفـــة
أو
ممالك ما وراء النهر والدولة الاسلامية إلى أيام المعتصم

للدكتور محمد عبد الهادى شعيرة

العلاقات بين الترك الساكنين على الحدود الشرقية وبين الدولة الاسـلامية عـلاقات حربية سلمية معا ، ولـكن جانب السلم يفوق جانب الحرب ، فـفي حين كانت الدولة تسـعى فيه إلى فرض حلفها على الترك والتغلب بالحـرب كانت تدعوهم إلى الاسلام والدخول فى عداد أهله ، وكانت كذلك تتبـع معهم سياسة خاصة عملية مرنة وهى إشراكهم في الدفاع عن حدود الاسلام .

ودرس هذه العلاقات هام ، لأنها هى التى هيأت الترك فى زمن يسير للتجنيد، حتى أصبحوا بعد نحو قرن واحد يؤلفون نواة الجيش الذى تعتمد عليه الخلافة ، وحتى أصبحوا من خير رعايا الدولة الاسلامية ومن أجلهم مكانا ، لا فرق بينهم فى ذلك وبين الفرس والقوميات الأخرى التى احتضنها الاسلام .

ونريد فى هذا المقال أن نعرف الترك وأقسامهم ، وأن نسجل إشراك المسلمين إياهم في حروب الثغور ، قبل أن يسلموا ، وبعد أن أسلموا ، وأن نبين كيف كانت صلة الدولة بهم أدعى ما تكون للتفاهم ، غير مشابهة فى شىء لصلات العرب بالشعوب الأخرى التى دخلت فى حدود المسلمين . ونريد كذلك أن نسجل تقبل الأتـراك للاسلام ، وسعي الدولة لنشر هذا الدين فيهم ، واستخدامهم فى الجيوش المركزية. فان هذه المسائل كلها هى التي تبين سياسة الخلف الاسلامية نحو الترك .

وليس فى عزمنا أن نعرض لفتح ما وراء النهر ، وما اقتضاه هـذا الفتـح من عمليـات حربية — لا تزال فى حاجة إلى ترتيب ، ولا ما اقتضـاه تثبيت النفوذ الاسلامى فى هذه الثغور من الغزو السنوي. فان ذلك نوع آخر من البحث أساسه تحقيق الوقائع وتوقيتها . وهو بحث لم يخصه أحد من المؤرخين المحدثين بدرس خاص فيما عدا الأستاذ جب ولهذا تجاوزنه إلى درس العلاقات. ولعلنا نعود اليه فى مقال آخر. (١)

حدود الاسلام قبل فتح أرض الترك

كان نهر المرغاب آخر أرض الاسلام حين استسلمت إيران . وذلك أن المرغاب كان الحد الشمالى الشرقى لايران الساسانية. أما ما بين المرغاب وجيحون الذي هو حد ما وراء النهر المصطلح عليه في الجغرافيا ، فكان واقعا تحت نفوذ الترك . وكان الفرس فيه موالى للأتراك كما يقول بارتولد في مقالته بدائرة المعارف الاسلامية، وكما تدل المصادر العربية. وكان يخيل للممعن فى تتبع الأخبار أن العرب قد اتخذوا حدودهم عند نهاية العالم الفـارسى شرقا. فانهـم لم يتجاوزا هذه الحدود ولا المنطقة المجاورة لها إلى ما وراء النهر (وهو نهر جيحون) قبل عهد الوليد: إلا مرات معدودات عبور المستكشف الموهم جاره أنه يقـظ على حماية أرضه وعلى صيانة هيبته ونفوذه .

ولم يكن بد مع ذلك من أن يستأنف العرب بصورة ما النزاع بـين إيران وطوران ، استجابة لدوافع هذا النزاع الأصيلة المتغلغلة أسبابها فى الأحوال الجغرافية والجنسية . وقام العرب فى ذلك مقام الفرس بين إعجابهم وتأييـدهم ، ولـكنهم طبعوا مقامهم هذا بطابعهم الخاص .

ولـكن العرب لم يفرغوا لاستئناف هذا النزاع بين إيران وطوران إلا في أيام الوليد . وذلك أن يزدجرد ، آخر الأكاسرة ، لم يقتـل إلا عام ٣٢ هـ . ولم

(١) ننوى جمع النصوص الخاصة بفتح ما وراء النهر وبالغزوات بعد ذلك

تلبث الفتنة الأولى أن قامت ، واضطربت طاعة خراسان ، وظلت ملتاثة حتى قتل علي (١). وكانت خلافة معاوية ثم يزيد ، فاستقرت الأمور بعض الشيء ، والتفت المسلمون إلي حماية الحدود الشرقية ، فأنزلوا جندهم فى مرو بعد عام ٤٥هـ (٢) . ثم كان عبور النهر لأول مرة على أرجح الروايات علي يد سعد بن الخليفة عثمان ، فى النصف الأخير من خلافة معاوية (٣). ثم عبره من بعده سلم بن زياد. (٤) ثم كانت الفتنة الثانية وعام الجماعة الثاني . ولكن الخلافة لم تكد تبرأ بعد ذلك من الاضطراب في المشرق (ثورات الخوارج وفتنة ابن الأشعث) ، فلم تفرغ لهذه الناحية حتي قام الوليد وولى قتيبة وقد اطمأن العراق ، ولا نكاد نسجل غزوا منتظما بين عام الجماعة الثاني وولاية قتيبة (إلا غزو نيزك في بذغشان وغزو أخرون وشومان وغزو كش ونسف وغزو الختل وغزو خوارزم(٥)).

وكانت بعض القبائل العربية المقيمة بخراسان اتصلت بالترك اتصالا لم يكن رسميا ولم يكن كذلك بمايسر ولاة خراسان ولا حكومة العراق والخلافة من ورائهما لأنه نشأ من التجاء بعض القبائل العربية الساخطة إلى الترك وإجارة الترك إياهم . ولاشك أن هذا الاتصال عرف العرب هذه النواحى معرفة صحيحة لم تكن قليلة النفع حين عادت هذه القبائل نفسها وغيرها فيما بعد محاربة فاتحة تحمل لواء الطاعة لا لواء العصيان .

وذلك أن موسى بن عبد الله بن خازم التجأ الى أرض الترك فارا من أرض الاسلام وعرض نفسه على الملوك ، ملوك ما وراء النهر ، فلم يجره إلا صاحب سمرقند.

---

(١) راجع البلاذرى : فتوح البلدان ، القاهرة ، ١٩٣٢ : ص ٣٩٩

(٢) نفسه ص ٤٠٠

(٣) نفسه ص ٤٠١

(٤) نفسه ص ٤٠٣

(٥) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، القاهرة : ١٩٣٣ : ـ ٤ ص ٩٤ عام ٨٤ ، ص ٧٣ عام ٨٠ ؛ ص ٩٧ عام ٨٥

ثم إن صاحب سمرقند جمع له « نيزك » العبد المتغلب على جبغوية ملك طخارستان ، والسبل صاحب الختل ، وأهل صغانيان ، وأهل بخارى (١) وكش ونسف (٢) ليمنعوه من ولاة خراسان. فأقام موسى ومن تبعه في نحو ٤٠٠ فارس وقوم من « بنى سليم بما وراء النهر » (٣) . وأخيرا نجد المسلمين في شرق المرغاب يتبعون لأول مرة أيام الوليد سياسة الفتح نحو الترك الذين استقروا غربي جيحون ، بينه وبين المرغاب فى القرن السادس الميلادى قبل الفتوح الاسلامية . والواقع أن استقرار النظام الحربى فى الشرق قد تأخر

— ١ —

الشعوب التركية في « ما وراء النهر » :

(١) فأول من نعرف من الترك جماعة من « الهياطلة » فى الطبسين بقوهستان (٤) وهم فيما يقول البلاذرى إما ترك وإما فرس غرباء نزحوا من هراة نحو الجنوب » فصاروا مع الأتراك فكانوا معاونين لأهل قوهستان ، وكان اليونان يعدونهم Indo Scythe . والراجح أن الهياطلة انحسروا إلى هذه النواحى الجنوبية وأن أمرهم لذلك لا يعنينا فى دراسة ما وراء النهر ، ويكفي أن نذكر أنهم ظهروا في القرن الخامس الميلادي ، فى منتصفه تقريبا ، قادمين من الشرق ، من أواسط آسيا فاستولوا على ما وراء النهر من يد طائفة أخرى سنتحدث عنها بعد قليل ، هى طائفة اليوتشى أو الطخارية . ويسمى الهياطلة بالفرنسية Hephtalites وبالانجليزية Ephtalites . ويسمون أيضا بالهون البيض . وليسوا فرسا كما توهم بعض روايات نقلها ابن الأثير ، وإنما هم شعب مغولى الأصل .

(١) ابن الأثير : الكامل - ٤ ص ٩٩ عام ٨٥
(٢) نفسه ص ١٠٠ عام ٨٥
(٣) نفسه ص ٩٧ عام ٨٥
(٤) البلاذري : فتوح ص ٣٩٤

(٢) وأقدم منهم وأبعد أثرا فى تاريخ ما وراء النهر شعب آخر ، هو الذي يسمى عند الصين يوتشى، (١) ويسمى عند العرب باسم اللهجة المغولية التى كان يتكلمها وهى الطخارية . وهو شعب استقر فى هذه النواحي منذ آخر القرن الثالث الميلادى حتي غلبه الهياطلة فى منتصف القرن الخامس . ثم استرد قوته حين انساح الهياطلة نحو الجنوب وتضاءل أمرهم ، وعظم الطخارية مرة أخري . وكان ملكهم يتلقب بلقب جبغوية . ونستطيع أن نؤكد أن نفوذهم أيام الفتح العربى كان يمتد إلى نهر المرغاب غربا ويصل إلى مرو الروز. (٢) وقد فرضوا حلفهم على دهاقين المدن الفارسية الكبري الواقعة شرقى المرغاب . فان كتب التاريخ تذكر هؤلاء الترك الطخارية إلى جانب دهاقين المدن الكبرى الواقعة بين المرغاب وجيحون : وهى الجوزجان والطالقان والفارياب. وقد اصطدم العرب بهذا الحلف حين أرادوا تجاوز نهر المرغاب أولا ، وحين ثارت طخارستان عقب فتوح قتيبة ثانيا .

كانت هذه المملكة أوسع ممالك الترك فى هذه الناحية . ولكن الانقسامات فرقت بين أجزائها .

لقد كانت تشمل كل الحوض الأعلي والأوسط من نهر جيحون وتمتد علي ضفتيه وتضم أرض الختل وبذغشان (٣) والطالقان (٤) وصغانيان وشومان وآخرون ، ولكننا لا نجد مع ذلك دليلا علي أن أرض الختل كانت من طخارستان

---

(١) انظر Lestrange: *Lands of the eastern califate* ص ٣٨ ؛ ه ١ ، ص ٤٣٣ ص ٦ وانظر Albertini: *L'empire romain;* vol. IV de la collection: Peuples et Civilisation ص ٤٠٩.

(٢) البلاذرى : فتوح ص ٣٩٦

(٣) أقرأ بذغشان بدل باذغيش الموجودة فى ابن الأثير والسبب فى هذه القراءة أن الذي يقال عن باذغيش لا ينطبق الا على باذغشان ما وراء النهر ، فقد اشترط صاحبها على قتيبة « ألا يدخل عليه باذغيش» وهو شرط لا يمكن تصوره بالنسبة لباذغيش القريبة من المرغاب .

(٤) والطالقان هنا غير الطالقان الجوزجانية ، وترسم بالياء أحيانا بدل اللام وهو الرسم الأصح ويرويها رافد من جيحون ، وتقع على مرحلتين شرقي ولواج (انظر لسترانج ٤٢٨)

وإنما أدمجناها فيها لتداخلها بين أجزائها ولتضامنها معها أحيانا ، أما بذخشان فان مصادرنا تقول إن صاحبها نيزك كان عبدا لجبغوية غلب عليه ، وهو الذي اتصل بالعرب محاربا ثم مصالحا ثم مخادعا ومراوغا ، أما صغانيان (وهي بالعجمية جغانيان حسب صبح الاعشى) فانها كانت حليفة طخارستان ، أما شومان وأخرون فان ابن الأثير يقول «هما من طخارستان (١)» ، وإن كان السياق لا يؤكد ذلك ، وكانت بلخ مدينة طخارستان . فكانت هذه المملكة حسب هذا التحديد تحتل مركزا وسطا بين شرقي إيران وأعالي نهر جيحون أو بين السهول والجبال (٢)

ويذكر صاحب صبح الأعشى أن طخارستان « هي بلدان في أعلي نهر جيحون قاعدتها ولوالج (٣) وهي مقر مملكة الهياطلة في القديم ولها مدن منها اسكلكند (٤) وروان (٥) وهي مدينة طخارستان » ، ثم يذكر نفس المؤلف إقليم بذخشان (بالخاء وقد رأيناه بالغين) ويجعله في أعلى طخارستان متاخما لبلاد الترك . وواضح أن هذا الوضع لم يكن وضع القرن الذي نتكلم عنه ، ومن الواضح كذلك أن التحديد الذي نجده في الأخبار الطوال (٦) أوسع من التحديد الذي استخلصناه وأقرب من تحديد القلقشندي ، فانه يقول (ص ٦١ و ٦٩) إن بلاد الهياطلة هي تخارستان (بالتاء) والصغانيان وكابلستان (٧) وزابلستان (٨) والأرضين التي خلف النهر الاعظم مما

---

(١) Lestrange يجعلها من منطقة قباذيان وهو تحديد لا يتعارض مع دخول هذه المملكة في الخلف الطخاري ، ولكن انظر ابن الأثير : الكامل حـ ٤ ص ١٠٥ ، ١٠٧

(٢) اقرأ البلاذري : فتوح ص ٣٩٧ـ٣٩٨ تجد الروايات المذكورة توحي بتحديد خاص

(٣) ولوالج ترسم أيضا وروالج (الراء بدل اللام) وورواز (الزاي بدل الجيم) أما رسمها بالنون في آخرها كما ذكر ياقوت فخطأ ، وتقع ولوالج علي مرحلتين من خلم .

(٤) اسكلكند : لم أهتد اليها .

(٥) ولم اهتد اليها كذلك

(٦) أبو حنيفة الدينوري : الأخبار الطوال ، بغداد — القاهرة ص ٦١ ، ٦٩

(٧) يعني اقليم كابل وغزنة

(٨) زابلستان حسب Lestrange ص : ٣٣ ، ٣٤٩ تقع بين أعالي نهر هلمند أو هند مند ونهر خواش الذي يصب في بحيرة زاره . وفي شمالي زابلستان يقع اقليم الغور (والغور منابع انهار كثيرة تتجه الي الشمال نحو خراسان والى الجنوب نحو زابلستان .

يلى بلخ، ويذكرون من ملوكهم اخشنوار ووزر، وكانت لهم منعه وكثرة تحيف(١) »
وهو تحديد ساقه الدينورى عند كلامه على هرمز(٢) بن يزدجرد

ولكنا نترك تلك التحديدات القديمة ونعتمد علي التحديد الذى استخلصناه،
ثم إن طخارستان تقلصت أمام سلطان العرب وفقدت كل نفوذها شرقى الرغاب(٣)
وفقدت بلخ وانزوت شرقى بلخ وسمنجان(٤) وضاع نفوذها فيصغانيان وشومان،
واتخذ الختل موقفا أبلغ في المقاومة من باقى طخارستان نفسها، وأصبحت مملكة
جبغوية تقتصر علي حوض جيحون الأعلى .

أما جنس الطخارية فلم تحدده النصوص العربية لأنها تذكرهم مرة علي أنهم
أحلاف الهياطلة ولأنهم ينسبون أحيانا أخري إلى الخزلخية أو القرلقية، وهى نسبة لا
يؤيدها مصدر آخر، لأنا لا نسمع عن القرلقية إلا بعد ذلك بنحو قرنين (٥) ولعل
تعريفهم بلهجتهم الطخارية أصح ما يقال عنهم .

ثم إننا نرى ممالك طخارستان بعد هذا التضامن منفردة يقوم كل إقليم منها
بذاته، ويكيف حسب استعداده الخاص موقفه من العرب، ثم إن موقف العرب
لم يكن واحدا بالنسبة لهذه الأقاليم جميعا .

(٣) أما مملكة الختل فانها تأخرت بالطاعة زمنا طويلا، وكانت أول الأمر من
حلفاء طخارستان علي الأرجح ثم كانت بعد منفردة من أشد أعضاء الحلف
الطخارى مقاومة للمسلمين، ولا مفر من أن نلاحظ أن العرب طاولوا الختل حتي

---

(١) الطبري : تاريخ ح ٢ ، ص ٩٩ (ط. القاهرة)

(٢) يدل هذا التحديد أولا على أن مملكة الهياطلة كانت أوسع من طخارستان كما عرفت قبيل فتوح المسلمين (ص ٦١)

(٣) انضم الترك أول الامر للمسلمين وصالحوهم ثم انهم خافوا لما يرون من فتوح المسلمين كما يروى ابن الأثير ح ٤ (ص ١١٤ سنة ٩٠) كأنهم لم يفطنوا للأمر منذ بدئه فلما فطنوا عمدوا الي العصيان ثم قمت ثورتهم سنة ٩١

(٤) البلاذري : فتوح ص ٣٩٩

(٥) انظر مقالة بارتولد عن القرلق فى دائرة المعارف الاسلامية

استيقنوا من عجزهم وانكسرت حدتهم بانتشار الاسلام بينهم ، وأن العرب تحرزوا من سبق الحوادث ومن التسرع وتجنبوا جرح كبرياء هذا الشعب .

وتقع أرض الختل بين نهر وخشاب وجيحون في أرض مرتفعة يتوسطها وادى نهر أخش ، ويقول لسترانج إن بلاد وخش منها ، وإنها تقع في أعلى الختل حيث ينبع نهر وخشاب

ويرجح لسترانج أن الختل هم الهياطلة وأن الاسمين متقاربان صوتيا ، وهو ترجيح متسرع بعيد لا يبرره إلا قلة ما تمدنا به المصادر من المعلومات عنهم (١)

ونستطيع أن نتقدم برأى في جنس الختل على أساس التجاء ملوكها إلى بلاد خاقان : وهو أن الصلة بينهم وبين ترك آسيا الوسطى صلة قرابة بين الشعبين كما سنرى بعد

(٤) أما الصغانيان من ناحية ، وشومان وأخرون من ناحية أخرى ، فهما البلدان اللتان اختلفتا فتسابقتا إلى العدو ، قتيبة ، وكان لهما بالمرصاد ، مصمما على إخضاع هذه النواحى ، يضع الخطط لذلك . فسارع إلى استغلال خلافهما ، فلم تكن إلا حملة يسيرة حتى خضع الجميع لسلطان الدولة الاسلامية ، أما ملك الصغانيان فانه تقدم بالهدايا ومفاتيح من ذهب ، أما ملك شومان فانه صالح على فدية ، وفي نفس الوقت استسلمت بلخ وهى مدينة طخارستان ومدينة النوبهار الذي كان يسدنه برمك ، جد البرامكة .

وهكذا كان أهل هذه الناحية من أسبق الولايات طاعة ، وكانوا من أكثرها وفاء ، وخاصة صغانيان ، ولم يلبث صاحب صغانيان ، وصاحب شومان وأخرون (٢)

(١) Lestrange ص ٣٨ ه ١ .
(٢) ابن الأثير : ج ٤ ص ١٨٦ ، ١٩٤ عام ١٠٤ ، ١٠٦

أن اشتركوا فى الحـــرب إلى جـانب المســـلمين .

وهكذا نجد هذه المنطقة تكاد تؤلف جماعة ذات مصالح مشتركة يتنازعون عليها وميول متقاربة . وهى منطقة يرويها نهران : أحدهما نهر صغانيان الذى يسمى أيضا نهر زامل ،وثانيهما نهر قباذيان، وكلاهما من روافد جيحون اليمني ، وكلاهما ينبع من جبال البتم ويجري عموديا تقريبا إلى جيحون ، وهي منطقة تستدير بظهرها إلى إقليم الصغد ، وليس بينها وبينه إلا طريق واحد مباشر هو طريق الباب الحديد الموصل بين ترمذ وسمرقند عن طريق الباب الحديد وكش . وفى أعالى هذه المنطقة أرض الختل وهى منفصلة عنها لأنها جميعا متوازية واقعة حول أنهار متوازية كافية أهلها عن الخلطة والاجتماع ، وإذا كان حقا أن هذه الأنهار تصب كلها فى جيحون فان جيحون يؤلف حدود هذه الأقاليم من الجنوب ثم إن العمران مقصور على أقاليم الضفة اليمني وحدها لأن الضفة الأخري تحف بالصحراء .

ومدينة هذه الناحية صغانيان والراجح أنها اليوم ساري آسيا(١) وتقع علي المجري الأعلى لنهر زامل .

أما شومان وآخرون (وقد اختلف رسم المدينة الأخيرة فصحفوا فى كتابة الخاء وقرأوها القراءات الممكنة) فانهما مدينتان خاضعتان لسلطان ملك واحد ، أما شومان فالراجح أنها اليوم حصار وتقع علي الحوض الأعلي لنهر قباذيان ، أما أخرون فقد أهمل الجغرافيون ذكرها فلم نستطع إثباتها فى الخريطة .

(٥) أما كش ونسف التي تسمى نخشب أيضا فانهما لا تكادان تتصلان بالعالم الطخارى الصغانياني الذي رأيناه، ولكنهما أقرب إلى بخارى وسمرقند وأكثر صلة بهما، وكان صاحب كش يستنصر بملك سمرقند كما يستنصر الضعيف بالقوى لا التابع بالمتبوع(٢)، وعندهما

(١) Lestrange ص ٤٤٠
(٢) ابن الأثير : جـ ٤ ص ٩٨ عام ٨٥

يبدأ الاقليم الذي حرص العرب على إقرار سلطانهم فيه لأنه طريق من طرق الغزو الذى يستطيع ترك آسيا الوسطى البعيدون أن يتخذوه إلى أرض الاسلام ، لكن كش ونسف منحرفتان بعض الشيء إلى الجنوبى من هذا الطريق الأكبر، لهذا نجد قتيبة لا يتجه إلى هذه الناحية إلا سنة ٨٩ يعنى بعد أن ابتدأ عمليات الفتح بثلاث سنين(١) ثم إنه لا يتجه إليها إلا ليصل منها إلى إقليم سمرقند وبخاري .

(٦) ولننتقل بعد ذلك إلي أكثر الترك أهمية وهم أهل بخاري والسغد ، أهل سمرقند ، الذين حملوا اسم سجديانا القديم . وبلادهم تقع على طريق آمل وهو أدنى من طريق زم (على جيحون) التي توصل إلى كش ونسف وأدنى كذلك من بلخ وترمذ اللتان تؤديان إلي صغانيان وشومان وآخرون ، وتقع بخارى والصغد فى أخصب بقاع ما وراء النهر ، وعلي أكبر طريق يؤدى من وسط آسيا إلى العالم الاسلامى، وترى لفظي بخارى والسغد متلازمين ، ولكن المراد بهما على أى حال هو أهل بخاري وما حولها وأهل سمرقند وما حولها ، وكان لكل منهما ملك ، ملك بخارى ويلقب عادة ببخارى خُدَاه ، وملك الصغد ولا تجعل له النصوص لقبا آخر ، ولكنا نراها دائما على وفاق تام وعلي تساعد ، ومع هذا فانا نجد الصغد أشد مقاومة للعرب وأكثر تمسكا بالقومية التركية وأجلب للحرب مع العرب، ونجد ملك الصغد أبعد صوتا وأعلي قدرا بين ملوك ما وراء النهر عامة .

كش ونسف وبخاري وسمرقند مدن إقليم يكاد يكون واحدا متصلا . وتتألف وحدة هذه الاقليم من نهرين يقعان بين جيحون وسيحون : أحدهما نهر الصغد المعروف الآن باسم زرفشان وتقع عليه سمرقند ثم بخاري ، وتقع سمرقند علي ١٥٠ ميلا شرق بخارى (٢) ، وعلي النهر الثانى تقع كش ثم نسف ولكن نهر الصغد كان

(١) نفسه حـ ٤ ص ١١٠ عام ٨٩

(٢) Lestrange ص ٤٦٣

أهم لوقوع مدن هامة عليه غير ما ذكرنا مثل بنجيكت وورغسر (أو رأس السد) والدبوسية .

(٧) وفى أدنى نهر جيحون يقيم ترك خوارزم ، فى أقصى الشمال الشرقى من الحدود الاسلامية جنوبى بحيرة آرال ، وملك هذا الاقليم يلقب بخوارزمشاه وعاصمته هزارسب ومدينة الفيل من أحصن مدنه (١).

(٨) ومن وراء جميع الترك الذين ذكرنا ، وعلي ضفاف سيحون نجد الممالك السيحونية وهى فرغانة بأخاشيدها ، وأشروسنة بأفاشينها ، والشاش .

أما فرغانه فتقع فى أعالى سيحون على ضفتيه ، أما الشاس فتقع أدنى منها علي الضفة اليمنى من النهر ، ويقابل الشاش علي الضفة اليسرى أشروسنة ، وقد عنيت روايات الطبرى بفتح فرغانة وأهملت فتوح الاقليمين الآخرين تقريبا ، ولكن هذا الاهمال يسير العاقبة لأن فتح فرغانة يفترض فى نفس الوقت فتح أشروسنة والشاش (٢) ، وتذكر مصادرنا أن العرب غزوا خجنده ثم كاشان عاصمة فرغانة ، ثم فتحوا اخشيكث وهي مدينة فرغانة القديمة (٣) وتذكر نفس المصادر من مدن فرغانة كاشان وأورشت ، وقد غزا العرب في نفس الوقت مدينة الشاش كذلك (٤) ولم يكن العرب أبطال هذه الحروب وحدهم ، فقد شاركهم الغزو أهل خوارزم وكش ونسف وبخاري والسغد وغيرهم من الترك .

ولكن موقف هذه الممالك السيحونية كان كموقف الصغد (بالصاد أو السين علي السواء) من حيث المقاومة الطويلة واحتضان المعارضة .

---

(١) ابن الأثير : حـ ٤ ص ١٢٥ / ١٢٦ عام ٩٣
(٢) الطبري : حـ ٨ ص ٩٢/٩ عام ٩٤ ، ابن الأثير : حـ ٤ ص ١٣١
(٣) ابن الأثير : حـ ٤ ص ١٠٥ عام ٨٦
(٤) لا يذكر شيء عن اشروسنه ولعلها سالمت دون حرب لأننا لابد أن نفترض ذلك لنسلم بايغال المسلمين الي الشاش

(٩) ومن ورائهم جميعا خاقان وهو لقب الملك الذي يحكم ترك آسيا الوسطى وهم فى أقصي الشرق فيما يلى ما وراء النهر بعد نهر سيحون وما علي ضفافه من الممالك التى ذكرنا ، ولا تمدنا مصادرنا بشيء عن جنس هؤلاء الترك .

ولكن مصادرنا تعتبر هذه المنطقة البعيدة منطقة الترك ومنطقة الصين فى آن واحد ، فمدينة كاشغر مثلا تعتبر « أدني مدائن الصين (١) » بمعني أن الصين تبدأ من الحدود الشرقية لما وراء النهر ، ولهذا يعتبر ملك الترك فى هذه النواحى أيضا ملك الصين ، ويتضح ذلك حين نجد إخشيد فرغانة يستمد ملك الصين فيمده بجيش يبلغ طراز فيلقاه هناك جيش إسلامى يهزمه . « فانهزم وهرب الفل إلى الصين (٢) » وإذا قيل أن ملك الختل هرب إلى الصين (٣) فمعنى هذا أنه قصد هذه الناحية .

ونجد خاقان أو ملك الصين يتدخل لنجدة ترك ما وراء النهر وصد العرب عن بلادهم ، ولكنه ينيب عن نفسه في أكثر الأحيان فنجد مرة ابن اخته (ابن اخت ملك الصين) كورنعابون أو كور بغابون ، (ابن الأثير جـ ٤ ص ١٠٩ سنة ٨٨ فى غزوة نومشكت) أو ابنه (سنة ٩٠ ص ١١٤ في فتح بخارى وسنة ٩٣ ص ١٢٦ مشتركا فى الدفاع عن سمرقند مع الصغد وأهل الشاش وسنة ١٠٦ ص ١٩٤ مغيرا علي ما وراء النهر) أو ابن أخيه (سنة ١١١ ص ٢٠٦) أو بعض قواده ، مثل كورصول (وإن كان السرد بعد ذلك يذكر خاقان)، ونجد خاقان كذلك غازيا بنفسه (سنة ١١٢ ص ٢٠٨/٩ مهاجما سمرقند وسنة ١١٩)

ونفهم من المصادر أيضا أن ملك خاقان أو ملك الصين هذا كان ملكا موحدا . وكان أقوي من جميع ممالك ماوراء النهر ، وتظل هذه الوحدة إلي أن يغدر كورصو فيقتل خاقان

(١) نفسه : جـ ٤ ص ١٣٥ عام ٩٦
(٢) نفسه جـ ٤ ص ٣٤٢ عام ١٣٣
(٣) نفسه جـ ٤ ص ٢٣٣ عام ١١٩ .

ويتشعب أمر الترك (١) فنجد كورصول يوصف بعد ذلك بأنه ملك من ملوكهم صاحب أربعة آلاف قبة ، ولا شك أن كورصول المقصود هنا هو نفس كورصول الغادر بخاقان لأن النصوص تقول ذلك صراحة (٢)، والراجح إذن أنه استقل بناحية وجماعة حين ضعف أمر الخاقانية .

أما ملك خاقان فلا نعرف حدوده

أما شعب خاقان فلا يسمى في مصادرنا باسم خاص (٣) ، غير أن هذه المصادر تقيم صلة بين ملوك الختل وبين الخاقانية ، وذلك أنها تروي أن خاقان أرسل إلى والي خراسان فى بعض حروبها رسولا ، فناداه « قد كان لك فيما وراء النهر مغزى، إنك لشديد الحرص، وقد كان عن الختل مندوحة، وهى أرض آبائى وأجدادى(٤)» وهى صلة تتأيد كذلك من ناحية أخرى ، فان بيت الملك في أرض الختل كان يجعل من الصين مأواه ، فان ابن السبل كان حرب الصين فى حياة أبيه لسبب نجهله ولا يهمنا أن نعرفه الآن ، فلما مات أبوه أوصى أن يسترد ملكا على الختل(٥) ولكن إثبات هذه الصلة وإن كان هاما فى ذاته لا يقدم شيئا في تعريف هذا الجنس التركي الواحد المقيم في أرض الختل وفى وسط آسيا .

ومهما يكن من شيء فان ترك الخاقانية أو الصين كما يسمون أحيانا كانوا عنصرا هاما فى تكييف السياسة فيما وراء النهر لأنهم أعانوا ملوكه أكثر من مرة ولم يقتصروا على ذلك ، فانهم طمعوا في طرد العرب من وراء النهر كله، وفى طردهم

(١) ابن الاثير : حـ ٤ ص ٢٢٨ عام ١١٩
(٢) نفسه : حـ ٤ ص ٢٤٣ عام ١٢١
(٣) يقول بارتولد ان خاقان هذا هو خاقان الترك الغربيين (بالنسبة للصين حسب الاصطلاح الحديث) وهم ترك التركش المعروفون باسم أون أوق أى السهام العشرة نسبة لعدد قبائلهم ، وان عاصمتهم على نهر جو ، ويفترض انها تسمى نواكث
(٤) نفسه : حـ ٤ ص ٢٢٧ عام ١١٩
(٥) نفسه : حـ٤ ص ٢٣٠ عام ١١٩

من خراسان كذلك ، فان بعض سلالة يزدجرد كان فى حاشية خاقان حين هاجم العرب سنة ١١٠ (١) وكان خاقان يدعو العرب فيما وراء النهر أن يدخلوا فى طاعته على أن يضاعف لهم العطاء ، وكان سليل يزدجرد يقول « يامعشر العرب ، لم تقتلون أنفسكم ، أنا الذي جئت بخاقان ليرد إلي مملكتى، وأنا آخذ لكم الأمان ».

* * *

— ٢ —

سياسة فرض الحلف والاضطلاع بحماية الحلفاء (إنشاء الحاميات)

أول ما يجب أن يقال عن ممالك ما وراء النهر أن فتح المسلمين إياها لم يخضعها لأحكام الاسلام السياسية ، وأنها لم تصبح بمجرد الفتح بمنزلة خراسان والعراق والشام ومصر . وإنما كان مثلها مثل أرمينية فى أن كل طرف من هذه الأطراف اعترف بسلطان الاسلام وظل محتفظا بأربعة أشياء : بجيوشه وإدارته ورؤسائه وحريته الدينية ، واحتفظ لذلك ببعض شخصيته السياسية المستقلة ، ودفعته هذه الشخصية إلى نقض الحلف وخلع سلطان المسلمين أكثر من مرة .

وكان أشد ما تحرص عليه الدولة الاسلامية طاعة هذه الأقاليم وإنشاء الحصون والحاميات لحماية الحلفاء ، لما فى ذلك من حماية فعالة لأرض الاسلام .

ونرى من هذين المثلين أن الاسلام حرص على إحاطة نفسه بدول صديقة حليفة . وسعى إلى هذه الغاية بالسياسة والسيف معا .

وقد نجحت سياسة الحلف هذه مع الأتراك نجاحا عظيما لم يتهيأ مثله فى أرمينية وأخذت الفروق بين الحليف القوى والحليف الضعيف تزول شيئا فشيئا إلى أن أصبح الترك عنصرا هاما في الدولة وأصبحت بلادهم سدا منيعا في وجه من وراءهم من الأتراك غير المسلمين ، بل أصبحت منطقة وسطى ينزلها الترك فيستحيلون

(١) نفسه : ـ ٤ ص ٢٠٤ عام ١١٠

فيها إلى رعايا مسلمين . وقد ارتسمت هذه السياسة أيام الأمويين ، ونمت واتسعت أيام العباسيين الأوائل لغلبة الروح الاسلامية على سياستهم . وجنى الاسلام من وراء ذلك ثمارا نظن أنها إذا أخذت جملة كانت خيرا للدولة الاسلامية .

* * *

لم يكن إقليم ما وراء النهر يخضع إذن لسلطان واحد ، بل كان ممالك عديدة تتضامن في بعض الأحيان وتفترق في كثير من الأحيان ، ولم يكن هذا الحال الفرق مما يحصنهم من العرب .

وقد كان من مرونة السياسة العربية ومن قلة خطئها أن تحاشت في أكثر أمرها العنف الجارح للعزة ، الباعث على التضامن فى المقاومة .

ولم تكن طاعة هذه الممالك للعرب بدرجة واحدة ولا فى وقت واحد . فالى هذه البلاد التي أقر المسلمون فيها حامياتهم وغزوا ما وراءها : كانت توجد بلاد أخري يكتفي العرب فيها باقرار نفوذهم ولا يغزون ما وراءها ، ولا يحرصون إلا علي طاعتها هى ، وسبب هذا التفريق هو أن العرب كانوا يخشون من وراء الطائفة الأولى ولا يخشون من وراء الأخرى ولا يتوقعون منهم الغزو أو التعرض لبلاد الاسلام .

وقد خدعت هذه الأحوال بعض الممالك فقبلت نفوذ العرب ، ولو كان احتلالا ما قبلته فى سهولة ، فلما حول العرب نفوذهم احتلالا ، كانت هذه الممالك قد تأثرت بالاسلام وتهيأت للاحتلال .

بدأ خضوع طخارستان للمسلمين أيام فتوح قتيبة فقط . وقبل جبغوية عنده عاملا عربيا . ولم يكن هذا العامل يعتمد علي جيش عربي مقيم بالناحية ، وإنما كان اعتماده علي هيبة الاسلام وعلى الحلف الذي يربط هذه المملكة بالاسلام، واشترك الطخاريون ونيزك خاصة فى الغزو مع المسلمين (١) ، فلما رأت طخارستان من فتوح

(١) ابن الاثير ج ٤ ص ١١٤ عام ٩٠

العرب فى ما وراء النهر ما هالها خشيت علي نفسها، وكأنها لم تكن فطنت إلى عواقب الحلف . فثارت أول مرة عام ٩٠، أيام قتيبة ، ولكن المسلمين فرضوا عليها حلفهم ، واحتلوا مدينة بلخ ، وقبل الطخاريون الحلف الذى خافوه وثاروا عليه من قبل . فلما كانت غزوة خاقان الكبري عام ١١٩ ، نزل خاقان في بعض حروبه(١) عند جبغويه ، فلما انتهت الغزاة وبعد الخطر الخاقاني عادت طخارستان إلى الطاعة ، ورأينا فيها جاليات عربية ، فقد كان بها عام ١١٩ بطون عربية من تغلب ناصرت الحارث بن سريج(٢) وكانت قائمة يومئذ فى «قلاع طخارستان العليا» ، وكان بها كذلك فى أيام المنصور جند إسلامى أيام ثورة استاذسيس(٣) ، وهكذا تحول النفوذ احتلالا . ولكننا لا نجد العرب يحاولون غزو مَنْ وراء هذه المملكة .

أما الختل ، وهم الوحيدون الذين بالغوا فى الاعتزاز بقوميتهم فى هذه الناحية، فان العرب ظلوا يغزونهم ويقبلون منهم الطاعة الاسمية أحيانا ، ويبادونهم الحرب أحيانا . ولم يقصروا فى انتهاز الاضطرابات الداخلية . فان والي خراسان احتج علي ملك تولى أمر هذه البلاد بأنه ليس من بيت الملك ولا صاحب حق فى ولاية الأمر . ولعل هذا التحاج هو الذي أعاد علي الختل أحد أبناء بيت الملك (أسد بن عبد الله بن خالد القسرى حاج بذلك بدر طرخان(٤))

فان كان المسلمون غزوا الختل قبل أزمان الفتوح ، فانهم كادوا يهملونها أيام قتيبة، دليل ذلك أن قائدا يسمى عطاءاً لقب بالختلي فى أيام معاوية (وهو تلقيب يدل على غزو الختل في هذا الوقت المبكر وعلى موقفها المنذر بالخطر) . ولا يضع من قيمة هذه الحجة أن لقب الختلي إنما هو قراءة خاصة ، وأن طبعة البلاذري المصرية

(١) نفسه جـ ٤ ص ٢٢٧ عام ١١٩
(٢) نفسه جـ٤ ص ٢٢٥ عام ١١٨
(٣) نفسه جـ ٥ ص ٢٩ عام ١٥٠
(٤) ابن الاثير : جـ ٤ ص ٢٣٣ عام ١١٩

تلقبه بالخشل بالشين المثلثة ، فهو تلقيب غير مفهوم لا معنى له ولا ينطبق على قائد من القواد ذى بلاء لا ينسب إلى ضعف أو تطامن ليكون خُشّلا كما قرأ القارئون ، ثم إن بعض قناطر قريبة من أرض الختل وبلخ منصوبة على جيحون تنسب إلى عطاء هذا(١) . أما قتيبة فانه حين بدأ فتوحه لم يعرض للختل ولا لأرضهم ، حتى تمت فتوح ما وراء النهر دون أن يلتفت المسلمون إلى هذه الناحية أو يتعرض لهم الختل ، فلما تم ذلك واستقر المسلمون فى نواحي بخارى وسمرقند أخذوا يغزون الختل ، وكانت مغازيهم بيا حول سنة ١٠٠ وسنة ١٠٨ وسنة ١١٥ ، فكانوا يرجعون بالغنائم والسبي(٢) وكان ملكها أكثر الملوك محاربة للمسلمين(٣) . ثم كان غزو خاقان فاجتاز نفوذ المسلمين في أرض الترك أزمة خطيرة لم تنته حتى انتهت معها كل مقاومة في جميع ما وراء النهر تقريبا ، فرجع ملوك الختل إلى خطة أحكم وأجدى من الناحية العملية وهى خطة المدافعة والخضوع معا ، وهى خطة رسمها لهم ملوكهم ، قالوا: «لا تحاربوا العرب وادفعوها عنكم بكل حيلة...وإنكم إن حاربتوهم هلكتم»(٤) . وقد عرف العرب من ملوكهم السبل ثم ابن السايجي ثم بدرطرخان ، وكان رجلا من البامیان بلغ الملك(٥) ثم الخنيش بن السبل(٦). وكان خنيش متصلا بترك آسيا الوسطى الذين يسمون بالصين أيضا ، لجأ اليهم أيام أبيه لسبب لا نعرفه ، ثم لجأ إليهم مرة ثانية حين احتل العرب بلاده .

كانت إذن للعرب سياسة خاصة ولملوك هذه الناحية سياسة خاصة ، وكان من

---

(١) البلاذري ص ٤٠٠

(٢) ابن الاثير : ج ٤ ص ١٥٨ عام ١٠٠ ، ص ١٩٨ عام ١٠٨ ، ص ٢٣٠ عام ١١٩ ، ص ٢٤٢ عام ١٣٣

(٣) ج ٤ ص ٢٣٠ عام ١١٩

(٤) نفسه

(٥) نفسه : ج ٤ ص ٢٣٣ عام ١١٩

(٦) نفسه : ج ٤ ص ٢٤٢ عام ١٣٣

أدواتها كذلك الجيوش فى وقت واحد ، وقد تأخر لذلك احتلال هـــذه البلاد (أرض الختل) إلى أيام أبي مسلم فانه وجه إليهم أبا داود خالد بن ابراهيم فدخلها (قادما من الوخش اليها[١] عام ١٣٣) ، ولم يستطع ملكها حنيش بن السبل إلا أن يتحصن «هو وأناس من الدهاقين» و «شاكريته» . فلما يئس خرج بمن معه إلى فرغانة ثم دخلوا منها «إلى بلد الترك وانتهوا إلى ملك الصين» ، وإنما هرب إلى فرغانة أولا لأن مدداً صينيا (أو قل تركيا) كان بها بعين إخشيدها علي ملك الشاش[٢] . وقد كان حنيش هرب إلى الترك من قبل أيام أبيه[٣]. ولم تقم لهؤلاء الختل بعد هرب حنيش قائمة ، ولم تسمع المعارضة عن نفسها شيئا ، ومكن لسلطان المسلمين بالبلاد ، وهكذا اكتفى العرب فى هذه الناحية بالنفوذ البعيد والمطاولة، إلى أن أداهم هذا الطريق إلى إخضاع البلاد إخضاعا تاما واحتلالها .

ولم ينج صغانيان حداه من غزو العرب واحتلال بلاده إلا لأنه وفـد على قتيبة بالطاعة ومفاتيح من ذهب . فكفى العرب كل حيلة ولم يضطرهم إلى احتلال البلاد ولم يغـدر قط في المناسبتين اللتين غدر فيهما كل ملوك ما وراء النهر : حين ثارت طخارستان وتحرك السغد بين ٩٠-٩٢ هـ ، ولا حين أغار خاقان حول ١١٩ هـ علي ما وراء النهر وخراسان وبئس الناس بمكانه ولم يدر جند المسلمين ما يفعلون. فكان أهل صغانيان فى هذا الموقف الأخير الحرج يشدون أزر الوالي ويتقبقرون معه كما تقدموا معه من قبل[٤]

أما ملك شومان فانه اغتر بنفسه وأبى إلا العصيان في المناسبة الأولى . فلما

---

(١) الطبرى : جـ ٩ ص ١٤٨ عام ١٣٣
(٢) ابن الاثير : جـ ٤ ص ٣٤٢ عام ١٣٣
(٣) نفسه : جـ ٤ ص ٢٣٠ عام ١١٩
(٤) نفسه : جـ ٤ ص ٢٢٩ عام ١١٩

حورب قاتل حتي قتل . واستفادت بلاده للمسلمين من بعده استفادة لم تحوجهم قط إلى العودة(١).

أما عن إقليم كش ونسف وبخارى والسغد ، فاننا ، إذا صرفنا النظر عن العلاقات اليسيرة بين ملوك هذه الناحية والعرب قبل عهد قتيبة ، وجدنا العرب فى عهد هذا القائد يحاولون فتح هذه الناحية ويقصدون بخارى وهى أقرب المدينتين إليهم ، فتستعصى عليهم استعصاءا شديدا ويُحصرون شهرين . وإنما نشير إلى حملة ٨٧ . ولكن العرب يعودون إلي منطقة بخارى مرة ثانية وثالثة ولا يبلغون بغيتهم، وهى أخذ بخارى، إلا فى الحملة الرابعة سنة ٩٠ ، ولا يظفرون في هذه المرة أيضا إلا بعد حرب قاسية ، صبروا لها هذا العام خاصة كما صبروا فى الأعوام الأخري(٢) . وعاونهم فيها نيزك صاحب باذغشان عبد جبغويه ، بينما كان الصغد يعاونون بخارى خداه (واسمه وردان) . (ويذكر النص أيضا خاقان : وهو لقب مخصوص بملك الترك البعيدين ، وليس فى سياق النص ما يبرر تدخله بصفة قاطعة لأن النص يعتبر مصطربا مقتضبا).

فنية الفتح ظاهرة لا شك فيها محدودة بزمان معين ومنصبة على هذا الاقليم خاصة من أقاليم ما وراء النهر . وقد رأينا العرب يحجمون عن فتح بعض النواحي الأخرى أو يكتفون في بعضها بالولاء ويقتصرون على إقرار هيبتهم . وقد رأيناهم قبل عهد الفتح يقومون بالحملات المتباعدة غير المتلاحقة التى لا يراد منها إلا إثبات اليقظة والحذر وإظهار القوة . وها هم الآن يحرصون على التسلط على الطريق الحربى لمنع من يسلكه من الغزاة من تهديد أمن العرب .

وكان من نتيجة انهزام بخارى أن وقعت هيبة المسلمين فى قلوب الصغد فطلب

(١) نفسه : ج ٤ ص ١١٨ عام ٩١

(٢) نفسه : ج ٤ ص ١٠٧/٨ ، ١٠٩٤ ، ١١٠٦ ، ١١٣٤ : حملات ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩٦ ، ٩٠

ملكهم ، وكان يسمى طرخون ، أن يصالح على فدية . فأجيب إلى ذلك (١). واعتبر هذا الصلح تجديدا لما كان قبل من سلام بينه وبين المسلمين (٢)، ولكن دوره كان فى حقيقة الأمر قريبا ، لأن زمن السلام كان من أصول السياسة القديمة السابقة على قتيبة .

ولعل طرخون كان محقا حين سالم . والراجح أنه كان أنفذ من رعيته وأشرافه بصيرة لأنه قدر من قوة الاسلام ومضاء عزمه ما لم يقدروا . ولكن أهل سمرقند أخذتهم العزة واستضعفوه واتهموه بالخنوع والتهيب ، فعزلوه وولوا ابنه غوزك سنة ٩١ (٣) . وكذلك اجترأ فى نفس الوقت أهل شومان وكش ونسف واستشفت البلاد عن حركة معارضة كالحركة الطخارية التى بدأت سنة ٩٠ واستمرت سنة ٩١ . وكان لهذه الحركة أن تستفحل وأن يستطير شررها ، لولا يقظة المسلمين وتطواف جيوشهم مرة واحدة بشومان وكش ونسف ، ولولا غزوهم سمرقند نفسها سنة ٩٣ . فانه لم يغب عنهم أن عزل طرخون كان تحديا .

فعاد المسلمون إلي مدينة الصغد ليردوها إلى الحلف وليجزوها على الغدر ، والواقع أن قتيبة قال لجنده حين عزم على قصد سمرقند فجأة . «إن الصغد شاغرة برجلها وقد نقضوا العهد الذى بيننا وصنعوا ما بلغكم » وقد عاون المسلمين أهل بخارى وأهل خوارزم ، وحاصر جميعهم سمرقند أشهرا ، ونصبوا عليها المجانيق، حتى أحدثوا فى سورها ثلمة، فصالحهم غوزك ، وكان غوزك يظن أن الجند لا تقيم فى مدينته . ولهذا كان فقهاء الناس يقولون غدر قتيبة بسمرقند .

ولم يغن عن سمرقند استغاثتها بمن وراءها من الترك ، فان الصغد كتبوا إلى ملك الشاش وخاقان وأخشاد فرغانة ، ولا ندرى لم لم يستغيثوا أيضا بأفاشين

(١) نفسه : جـ ٤ ص ١١٤ عام ٩٠
(٢) الطبري : جـ ٧ ص ٦٩ عام ٩٠
(٣) ابن الاثير : جـ ٤ ص ١١٨ عام ٩١

أشروسنة لتتم لهم الاستغاثة بكل من وراءهم. وقالوا « إن العرب إن ظفروا بنا أتوكم بمثل ما أتونا به ، فانظروا لأنفسكم ، ومهما كان عندكم من قوة فابذلوها (١) وتحركت النجدة ولكنها لم تصل إلى سمرقند ، وهزمت دونها شر هزيمة . وهكذا كان السغد على يقين من نوايا العرب يعلمون أنهم يريدون فتح البلاد .

وإنما خضع السغد للقوة ولم تستسلم قلوبهم ، ولهذا ظلوا يبدون من المقاومة ما أقلق العرب ، ولكن السغد سالموا أول الأمر وسالمهم المسلمون ، فدعاهم عمر بن عبد العزيز إلى الاسلام فيمن دعا من ملوك ما وراء النهر (٢) . فأسلم بعضهم ولم تحدد المصادر هذا البعض . ولكن هذه الدعوة فى ذاتها كانت مسالمة باعثة على الاطمئنان والتراخى فى المقاومة . ولعل أهل سمرقند ظنوا كذلك أنهم يجدون من الخليفة عمر سميعا عادلا ، فشكوا إليه احتلال سمرقند غدرا (٣) . ولعلهم لم يجدوا من عدله متسعا يرضونه . ولم تلبث الأمور أن ساءت لأن الاحتلال الجديد جرح اعتزاز السغد بأنفسهم . فأخذ السغد ينتهزون الفرص لتحرير أرضهم . ولم تكن الفرص قليلة . فان الفتوح لم تكد تتم حتى كانت فتنة فتيبة . ثم تلا ذلك فتنة ابن المهلب ثم ولي خراسان وال استضعفه الناس ، « فطمعت الترك ، فجمعهم خاقان ووجههم إلى الصغد ، وعلي الترك كورصول »، فأقبلوا حتي نزلوا حصون المسلمين فيما وراء النهر (٤) ، فاضطر المسلمون أن يتراجعوا عنها إلى سمرقند (٥) . وهكذا نقض السغد العهد ، وتعاونوا مع الخاقانية علي المسلمين ، ولجوا في النقض، ولم يترددوا حين توقعوا الهزيمة أن ينزحوا عن ديارهم إلى من وراءهم من الملوك . وظلت الحرب قائمة بينهم هم ومن ساندهم ، وخاصة خاقان ، وبين المسلمين إلى عام ١١٩ لم تكد

(١) نفسه : ج ٤ ص ١٢٦ عام ٩٣
(٢) البلاذرى : ص ٤١٥
(٣) نفسه : ص ٤١١
(٤) ابن الاثير : ج ٤ ص ١٧٨ عام ١٠٢
(٥) نفسه : ج ٤ ص ١٧٩ عام ١٠٢

تنقطع إلا بالدعوة للاسلام مرة أخري عام ١١٠ (١) وإلا بسياسة المطاولة وتجنب حرب الابادةمن جانب العرب (٢) . ومع ذلك فان المقاومة لم تنقطع انقطاعا تاما رسميا إلا سنة ١٢٣(٣). بعد ابتدائها بعشرين عاما ، وبعد أن لقى المسلمون من شدة لا يصورها إلا ابتهاج الخليفة هشام عندما أتاه البريد بقتل خاقان ،و كان سند السغد الأكبر، أتاه رسول الوالي من خراسان بالنبأ فلم يصدقه ، ثم قدم مبشر آخر« فوقف علي باب هشام و كبر ، فاجابه هشام بالتكبير ، فلما انتهى إليهأخبره بالفتح فسجد شكرا لله تعالى » .

وهكذا نجد الدولة الاسلامية تتبع مع هذه الناحية سياسة واضحة لا شك فيها ، ولا تنكص أمام ما تتطلبه هذه السياسة من جهود وأعمال حربية ، ولا تتورط فى طريق العداوة إلى إبادة أعدائها العصاة وتخريب أرضهم : ولم يكن العرب يكبحون هذا العصيان بالسيف وحده ، ولكنهم كانوا يعرفون الطرائق السلمية السليمة التي تقوم مقام السيف . فانهم إن عدوا عزل السغد صاحبهم غدرا يستوجب عليه السغد العقاب : فانهم حرصوا من ناحية أخري على أن يعزلوا بخارى خداه ليقيموا بخارى خداه آخر حدثا، «وقتلوا من يخاف أن يضاده » ،(٤) ليكون هذا الملك من صنائعهم.

ولم يقتصر العرب على هذه المناورات السلمية أو الشبيهة بالسلمية بتعبير أدق ، فان حامياتهم لم تابث أن استقرت فى نواحى الصغد و كش و نسف ، علي حين اكتفى العرب باثبات هيبتهم وبالطاعة البعيدة فى النواحى الأخرى ، فانهم حرصوا هنا علي تأييد سلطانهم بالحاميات لأنهم وجدوا من وراء هذه البلاد من يعاونها

(١) نفسه : ج ٤ ص ٢٠٢/٢٠٥ عام ١١٠
(٢) نفسه : ج ٤ ص ١٧٩/١٨٠ عام ١٠٢
(٣) نفسه : ج ٤ ص ٢٥٠ عام ١٢٣
(٤) نفسه : ج ٤ ص ١١٨ عام ٩١

وينازع العرب عليها، فاتخذ العرب هنا قصر الباهلي(١) وقصر الريح(٢) وكرجة(٣) . ومن وراء هذا الخط الدفاعي الواقع وراء نهر الصغد أقيم خط آخر من الحاميات المتحصنة مؤلف من سمرقند والدبوسية وبخارى، ثم حصن آخر من وراء هذه الحصون كلها هو الباب الحديد(٤) المتحكم فى طريق ترمذ ـ سمرقند ماراً بكش . وكانت حامية الدبوسية(٥) تبلغ عشرة آلاف مقاتل فى سنة ١١٠ . ولم تكن حامية سمرقند

(١) قصر الباهلي : هوجم سنة ١٠٢ وكان به حامية عربية ، منهم جماعة من باهلة فى مائة أهل بيت بذراريهم وكانوا ساعة الهجوم ينتظرون المدد من سمرقند ، فلما ارتدوا كان ارتدادهم الى سمرقند ، ولهذا يجب أن يوضع قصر الباهلي فى شرقي سمرقند على مسافة بعيدة بعض الشيء لا تقل عن اربع فراسخ كما يدل السرد (ابن الاثير حـ ٤ ص ٩/١٧٨ عام ١٠٢) ولم يورد لسترانج في كتابه لهذا الحصن ذكرا.

(٢) قصر الريح على فرسخين من الدبوسية وقد نزلته بعض الغزوات فى طريقها الي خجنده (ابن الاثير : حـ ٤ ص ١٨٤ عام ١٠٤ البلاذرى ص ٤١٧) ولم يورد لسترانج في كتابه لهذا الحصن ذكرا.

(٣) كرجه : من أعظم بلاد خراسان كما يقول ابن الاثير وليس المقصود من هذا التعريف أن الحصن يقع فى اقليم خراسان نفسه . وانما هي فيما وراء النهر لأن حاميتها تراجعت الي الدبوسيه وسمرقند ، ولست أدرى أين يجب وضع الحصن بالضبط ، ولكن يكفي في الدلالة علي أهميته أن حاميته ثبتت للحصار ٥٨ يوما . وأنها لم تسق ابلها ٣٥ يوما (ابن الاثير : حـ ٤ ص ٢٠٤ /٥ عام ١١٠) ولا يورد لسترانج لهذا الحصن ذكرا ، وقد نستطيع أن نعترض قياسا علي ما قال لسترانج عن مدينة بكرمان ، أن كرجه كان حصنا تجاريا على الحدود وأن اسمه جاء من اليونانيه κουμέρκι ولكنه فرض لا يؤيده شيء اطلاقا ، الا التوافق الصوتى بين اللفظتين وهو توافق لا يعتبر حجة حاسمة ما لم نعرف أصله التاريخي .

(٤) الباب الحديد وترسم الكلمة بالحاء المهملة فى الطبري وبالجيم المعجمة فى ابن الاثير وليس في السرد ما يحدد المكان (ابن الاثير : حـ ٤ ص ٢٤٣ عام ١٢١)، الا أن الوصول اليه من ناحية بلخ ، وهنا يسعفنا بالمدد لسترانج ومصادره الجغرافية، فيقول ان المدينة تسمى بالفارسية دربند آهنين وانها تقع فى وادى عميق منحوته فى أرض مرتفعة فهي ممر ذو أهمية استراتيجية (Lestrange ص ٢/٤٤١) وكان هذا الممر طريق التجارة أيام تيمور ، وقد أظهر نصر حرصه علي أمان هذا الطريق فغزا منه سنة ١٢١ . ومعنى هذا أن هذه الناحية كانت قاعدة للغزو .

(٥) ابن الاثير : حـ ٤ ص ٢٠٥ عام ١١٠ .

أقل منها عددا . فان ندبة خرجت من حاميتها فى بعض الحروب بلغت ٤ آلاف(١) وكانت بخارى قاعدة حربية تقيم فيها حامية كبيرة من جند المسلمين . وكان الباب الحديد طريقا حربيا قريبا إلى سمرقند .

ومعنى هذا أن إقليم بخارى والصغد بما فيه كش ونسف إلى الباب الحديد، كان أهم منطقة دفاعية. وتلك حقيقة لا سبيل إلى الشك فيها ولا إلى إهمالها . أما الممالك التى تجاور هذا الاقليم عن يمين وشمال فهى خوارزم من شمال وصغانيان وشومان والختل وطخارستان من يمين ، وهى أقاليم لزم بعضها الوفاء مثل خوارزم وصغانيان وشومان ، أو أقاليم لم تنل من العرب الاهتمام الأول فلم يسارعوا إلى وضع حاميات فيها ولم ينشطوا للغزو من نواحيها لأن الخطر منها إقليمى يسير ،

وهكذا ترى المسلمين يعاملون ملوك هذه النواحي معاملة مختلفة، ويجعلون لكل ناحية موقفا شرعيا خاصا يتفاوت بتفاوت المصالح التى يريدون تحقيقها فهؤلاء أهل عهد وهؤلاء أهل موادعة ، وأولئك أهل ذمة . ولم يزيدون على ذلك ، إذا كان غرضهم قاصرا الحلف وحماية الطريق الاستراتيجى ؟

— ٣ —

سياسة إشراك الترك في حماية الحدود

ولم تتبع الدولة الاسلامية مع هؤلاء الملوك سياسة الحرب التى اتبعتها مع الروم في غير هوادة ، فان مثل هذه السياسة الغالية تفترض أن لا سبيل للتفاهم مع العدو إما لتمسكه بدينه تمسكا لا مطمع فيه ، وإما لثبات دعائم حكومته ثباتا لا يطمع العرب فى تقويضها . وإنما اتبع المسلمون هنا إلى جانب السياسة الحربية سياسة التعاون :

(١) ابن الاثير : ج ٤ ص ١٧٨ عام ١٠٢

لأنهم أحسوا إحساسا داخليا غامضا أن دين الترك ضعيف أمام الاسلام ، ولأنهم رأوا أن الاستيلاء على دول الترك أمر ممكن . ويظهر هذا التعاون في إشراك الترك في الجهاد إشراكا مستمرا يدل باستمراره على أنه كان سياسة مرسومة . وقد كان الروم كذلك يشركون جيرانهم المطبوعين على الحرب فى حروبهم : لكيلا يحرموهم من ميل طبيعي جبلوا عليه ، دون نظر إلى دينهم ولا إلى جنسهم ، فان من الشعوب من لا يتنازل عن الحرب فى سهولة ومن يسدد إليك سهامه إن لم توجهها وجهة أخرى : لتكون حربا على غيرك لا عليك ، والراجح أن هذه الحقيقة لم تغب عن فطنة العرب ، فأشركوا الترك فى غزواتهم ضد الترك ، واستغلوا بهذا سيوفا كانت جديرة بأن ترفع على رؤوسهم . وتخففوا من بعض الأعباء .

والواقع مع ذلك أن هذا الاشراك كان ضروريا لأن العبء الملقى على الجيش الاسلامى كان فوق ما يحتمل . فان المسلمين لم يكونوا يجرأون على عبور النهر إلا فى عدد كبير ، فجرت عادة ولاة خراسان أن لا يضعوا أقدامهم على الضفة اليمنى لنهر جيحون إلا في خمسين ألفا من المقاتلة ، وجرت عادتهم كذلك أن لا يمر عام بدون غزاة(١) إلا أن يمنعهم من ذلك مانع جسيم . لا يرون بدا من هذا الغزو المستمر فى العدد الكثير . وهم مع ذلك إنما يردون أرضا صالح أهلها ووقعت هيبة الدولة في نفوسهم وقامت حاميات المسلمين في حصونهم . وذلك أن المسلمين كانوا بازاء عدو حرب لدود لا تنفد حيله ولا تبارى مهارته ، فقد كان قدامى الجند يقولون «إن الترك ليسوا كغيرهم ، لا يلقونك صفا ولا زحفا .. وإنما يظهرون فجأة كأنما نبتوا من الأرض وجاءوا من كل وجه» . ولهذا كان من حسن الرأي أن « صاحب

(١) في سنة ١٠٩ (ابن الأثير جـ٤ ص ٢٠٠) الحكم بن عوانة الكلبي أقام صيفية لم يغز، فعني المؤرخون بتسجيل ذلك . وعير الناس سعيد خديئة بأنه ترك الغزو سنة ١٠٢ (ابن الأثير جـ٤ ص ١٧٩) . وكذلك لاموا عاملا لم يغز عام ١١٧ (ابن الأثير : جـ ٤ ص ٢٢١).

خراسان لا يعبر النهر — جيحون — في أقل من خمسين ألفا[١]» .

وقد كان من أنفع الأشياء إذن أن يشرك المسلمون الترك . فهم أعرف بالأرض وبحيل الترك ولغاتهم وطبائعهم .

ولكن السبب القوي للاشراك فيما أعتقد : هو أن المسلمين كانوا يؤثرون أن يسالموا هؤلاء الناس وأن يستميلوهم إلى جانبهم وأن يقيموا بين جندهم جميعا أخوة حربية ، ويتوقعون من وراء هذه الوسائل خيراً للاسلام نفسه ، وما دامت الخطة تؤدي إلى عز الاسلام فهي الخطة التي كان يحرص عليها أصحاب السياسة في ذلك الزمن . فقد كان « إعزاز الاسلام » صيغة من الصيغ التي تعبر عن أهداف السياسة في ذلك الوقت . فترددت في كتب المؤرخين وقصائد الشعراء .

فلم يكن العرب يلجأون إلى السيف إلا حين تضيق بهم الحيل ، فاذا استعملوا السيف حرصوا على أن لا يبيدوا العدو .

فقد آثر قتيبة طريقة الحلف : مثل حلفه مع نيزك على ألا يدخل أرضه (ابن الأثير : جـ ٤ ، ص ١٠٧ عام ٨٧) وآثر قتيبة اصطناع الملوك (فملّك حدثا على بخاري : نفسه : جـ ٤ ، ص ١١٨ سنة ٩١) واستغل كذلك الخصومات الداخلية ، فانتفع من الخصومة بين ملك صغانيان وملك شومان ، واستغل الخصومة بين خوارزمشاه ومنافسيه[٢] ، وآثر المفاوضة مع العصاة ليستجلبهم باللين قبل أن يجيبهم بالحرب : كما فعل مع ملك شومان حين عصى : فأرسل إليه رسولين فقتل أحدهم ونجا الثاني[٣] فلم يغضب ولم يجمح ، وإنما أرسل أخاه ليستميل الملك ، وهكذا

(١) ابن الاثير : جـ ٤ ص ٢٠٩ عام ١١٢

(٢) نفسه : جـ ٤ ص ١٢٥/١٢٦ عام ٩٣

(٣) نفسه : جـ ٤ ص ١١٨ عام ٩١

فعل ولاة الثغر بعد قتيبة ، وقد كان من الجند من يحب هز السيوف وإحكام القتال والنيل من العدو ، ويستضعف هذه السياسة العليا الحكيمة التي يتبعها ولاة خراسان، ومن ذلك أن أحد ولاة خراسان أمر الجند بالابقاء على الصغد وذكرهم بما يكون بين قبائلهم أحيانا وبين الخلافة من حروب لم تصل إلى الابادة . قال : لا تتبعوهم فان السغد بستان أمير المؤمنين ، وقد هزمتموهم ، أتريدون بوارهم ؟ وقد قاتلتم يا أهل العراق الخلفاء غير مرة فهل أبادوكم» . أما الجند فكانوا لا يرون إلا أن الثوار «عقيرة الله»(١).

وإنما نشير إلى سعيد خدينة والى خراسان وسياسته اللينة وجابه على نفسه لذلك سوء الذكر بين الناس . فان الذكر الحسن والصيت البعيد كان من نصيب الوالي المظفر الذى تدر غزواته الثروة على الجند . أما هذا : فانه كان يرد الغنيمة ويعاقب السرية إن بالغت في الحرب . وكذلك آثر بعض الولاة حبا فى السلم أن يقبلوا من شروط الصلح مع الترك ما لم يكن يقبله المسلمون عادة من عدم عقاب المرتد مثلا . وكذلك لم يتمسك الولاة بالسلطان التام فى كل مكان إلا بالقدر الذي يضمن أمان الثغر . وقبلوا كما رأينا أن يتفاوت سلطانهم على ما وراء النهر فهم قد أدركوا أن ظل السلطان يثقل على الشعوب . ولهذا كله نعتقد أن المسلمين إنما أثروا الترك في حربهم إيثارا للسالمة وطمعا فى إعزاز الاسلام عن هذا الطريق . فلم يتشددوا فى معاملة الترك ولم يكلفوهم مالا يطيقون من تطليق طبيعتهم المجبولة على الحرب ، ولم يأخذوهم بشرائط الجزية الدقيقة ما داموا يستطيعون أن يستعيضوا عنها بما تبذله لهم سيوفهم وببعض إتاواتهم ، ولم يأخذوهم بالاسلام الذى لا يعرف الردة ما دام الترك لا يفرقون بين الاسلام والطاعة : إن ذهب أحدهما تبعه الآخر ، ولعلهم وثقوا بالزمن وانتظروا من المسالمة فوق ما كان لهم أن ينتظروا من السيف .

(١) ابن الأثير : ج ٤ ص ١٧٩ عام ١٠٢

وقد بدأت سياسة إشراك الترك فى الجهاد منـذ ابتداء فتوح ما وراء النهر تقريبا . كأنها كانت أمراً مقررا من قبل ، والراجح أنها كانت كذلك : لأننا أشرنا إلى أن العرب عرفوا الترك معرفة دقيقة قبل أن يفتحوا أرضهم .

فان صاحب باذغشان وكان يسمى نيزك اشترك سنة ٨٨ في حصـار نومشكت (وهى بخاري القديمة) وأبلى . وهو أول إشراك تسجله المصادر(١). ثم اشترك نيزك فى حرب بخاري سنة ٩٠(٢) ثم خلع مقفله من هذه الغزوة : لأنه رأي من المسلمين ما أفزعه(٣). فلما كان ببلخ نزل على النوبهار فصلي ، ولا نظن أنه كان مسلمـا ، والدليـل على ذلك أن قتيبة استنزله بأمان بعـد عصيانه ثم لم يرع الأمان فكان الناس يرون أنه غدر به(٤) ، ولو كان ارتد لم يكن له أمان .

ثم اشترك مع قتيبة «أهل خوارزم وبخارى» فى حرب الصغد سنة ٩٣ ، وقد روى أن قتيبة اشترط على الصغد أن يمدوه بثلاثين ألف فارس وقيل بمائة(٥) ، ولا نتمسك بالعدد وإنما نتمسك بنوع الشرط ، فلما كانت السنة التالية وجـدنا قتيبة يفرض على أهل بخارى وكش ونسف وخوارزم عشرين ألف مقاتل ، ويسير بهم نحو الشاش وفرغانة(٦). وكان ذلك سياسة ثابتة اتبعها قتيبة : فانه كان يستخدم العجم ، ويتضح ذلك من قول ابن الأثير أنه «كان يجعل الطلائع فرسـان الناس واشرافهم ومعهم من العجم من يستنصحه» . وقد كان من أشراف العجم من يرعى حق الفروسية ويقدس الحلف ، فان قوما من أبناء ملوك السغد كانوا مع قتيبة

(١) من الجائز ان يكون هذا الاشتراك واشتراك سنة ٩٠ شيئا واحدا ، لان ابن الاثير يضم فتح بخارى في هذه السنة او في سنة ٩٠ (ابن الاثير : جـ ٤ ص ١٠٩ عام ٨٨)
(٢) نفسه : جـ ٤ ص ١١٤ عام ٩٠
(٣) نفسه
(٤) نفسه : جـ ٤ ص ١١٥ عام ٩٠
(٥) ابن الاثير : جـ٤ ص ١٢٧ عام ٩٣
(٦) نفسه : جـ ٤ ص ١٣١ عام ٩٤

حين خلع سليمان واضطرب عليه الأمر فأنفوا من خذلانه ، ولم يقولوا كما قال غيرهم: إن هذا يوم خذلان قتيبة لسوء بلائه عند العجم(١). ولكن استخدام الأتراك كان فى الحقيقة مقصورا على الغزو ، وليس تأييدهم قتيبة هنا إلا نتيجة لموقف شاذ غلبت فيه روح الفروسية .

ونجد الترك يشتركون فى الغزو بعد ذلك التاريخ ببضع سنين ، فان ترك خاقان ملك ق ، ولعله من ملوك السغد ، عرض معونته حين هاجم الترك والسغد قصر الباهلى سنة ١٠٢ وانضم إلى المسلمين مع ٣٠٠ من مقاتليه(٢). ونلاحظ أن طليعة الاستكشاف كانت مؤلفة من رجلين من العرب ورجل من العجم . ونجد أثر هذا الاشتراك والأخوة الحربية حين نجد عظماء السغد الأسرى ينزلون على الذين يعرفونهم من جند المسلمين(٣). ونجد سنة ١٠٤ خوارزمشاه وصاحب أخرون وشومان يحاربون السغد مع والى خراسان (الحرشى)(٤)، ونجد الصغانيان يخرجون للغزو مع المسلمين(٥).

ومع ذلك فان الترك لم ينالوا ثقة العرب كاملة . ولهذا كان يندر أن يطلب الولاة إليهم الاشتراك في الحرب فى سنوات الاضطراب ، لا نستثنى إلا أهل الصغانيان وصغان خداه ، فقد أعانوا والي خراسان بينما كان خاقان غالبا على سمرقند ونواحيها يهاجم العرب ويطردهم(٦)، وصبروا هم وجماعة من الأعاجم لا نعرف جنسيتهم(٧)، ولعل هؤلاء الأعاجم من سكان المدن الواقعة بين المرغاب

(١) البلاذرى : ص ٤١٣
(٢) ابن الاثير : جـ ٤ ص ١٧٨ عام ١٠٢
(٣) نفسه : جـ ٤ ص ١٨٥ عام ١٠٤
(٤) نفسه : جـ ٤ ص ١٨٦ عام ١٠٤
(٥) نفسه : جـ ٤ ص ١٩٤ عام ١٠٦
(٦) نفسه : جـ ٤ ص ٢٢٦ عام ١١٩
(٧) نفسه : جـ ٤ ص ٢٢٧ عام ١١٩

وجيحون مثل الجوزجان ، فانهم كانوا يؤلفون قسما من ميمنة والى خراسان حين صاف خاقان(١) دون أن ينسبوا إلى قبيلة بولاء .

فلما مضت الأزمة وولي نصر غزا الشاش ومعه بخارى خداه فى أهل بخارى ، ومعه أهل سمرقند وكش ونسف ، وهم عشرون ألفا . أما هذا الرقم فيذكرنا بالعشرين ألفا الذين فرضهم قتيبة على أهل هذه المدن ما عدا سمرقند . ولا نظن ذلك كان عددا تقليديا ، ولكنه عدد لا نظن المسلمين تجاوزوه حين استعانوا بالترك لتكون الكثرة عربية ، وعلى أساس أن الجيش العربي يقارب عادة خمسين ألفا . أما الذين صحبوا نصرا فهم من الترك لا من أجناد المسلمين ، والتعبير القديم يفرق بين الصنفين فيقول : أهل سمرقند مثلا إذا قصد الترك ، ويقول : جند سمرقند إذا قصد الحامية العربية بها(٢). ومن المعقول إذن أن يكون هذا العدد من الترك مسلما غازيا مع العرب طلبا للجهاد وحبا فى إشباع الفروسية ، على حين أن الراجح أن الذين غزوا أيام قتيبة لم يكونوا مسلمين ، ولكن النصوص تلتزم الصمت في الحالتين : وهو صمت نؤوله نحن حسب الظروف المحيطة ، وقد تغيرت الظروف تغييرا شديدا . ويتضح ذلك حين نعلم مثلا أنه كان لبخاري خداه قصر فى مرو(٣) نظنه كان يقيم فيه أكثر مما كان يقيم فى بخارى ليكون أقرب للولاة وأبعد عن الريبة .

ولكن ترك ما وراء النهر إن فقدوا استقلالهم فانهم لم يفقدوا شخصيتهم ولا فروسيتهم . وذلك أنهم اتحدوا مع عرب ما وراء النهر من مضر وربيعة واليمن ، وتحالفوا على قتال المسودة(٤). ولا مفر أن نلاحظ أن في هذا الموقف وفاءاً للعرب المستقرين فيما وراء النهر خاصة ، واحتفاظا بالعداوة القديمة بين إيران وطوران .

---

(١) نفسه : ج ٤ ص ٢٢٨ عام ١١٩
(٢) ابن الاثير : ج ٤ ص ٢٤٣ عام ١٢١
(٣) نفسه : ج ٤ ص ٣١٠ عام ١٣٠
(٤) نفسه : ج ٤ ص ٣١٢ عام ١٣٠

ولهذا لم يكن الاتصال بين رجال السودة فى خراسان وبين ملوك ما وراء النهر اتصالا وديا . على حين كان التفاهم تاما بينهم وبين رجال الأمويين، فانا نجد أبا داود يغزو الختل ويلجيء ملكهم إلى الهرب ، ويغزو كش ليعتقل ملكها وهو سامع مطيع ، ويقتل أناسا من أهل الصغد وبخارى(١).

ولا يلبث الأمر أن يستتب : فنجد ترك طخارستان مع جند المنصور يحاربون أستاذسيس(٢). فاذا كانت أيام الرشيد وجدنا حامية صغدية تحارب عام ١٨٠ لا في ما وراء النهر غازية مجاهدة ، ولكن مقيمة لاقرار النظام وقمع الفتن فى مدينة زرنج أى فى أرض بعيدة عن الأرض الأصلية وفى أحوال تخالف تمام المخالفة الأحوال الأولى التى أقرها قتيبة ، ولا شك أن هذه الحقيقة تعتبر نقطة تحول كبير فى السياسة العامة . وهى على أي حال أكبر أهمية فى تاريخ ما وراء النهر ، لأنها تدل على أنه أصبح عضوا في جسم الدولة غير خارج عنه(٣).

ولا نستطيع أن نعرف إن كانت هذه الواقعة أول واقعة من نوعها ، لأن سوقها فى كتب التاريخ جاء عفواً دون تمهيد خاص ودون تعليق من المؤرخين ، كأنها شيء لم يجبهم فى ذلك العصر الذى استخدم فيه العجم وأتيحت لهم المكانة الأولى في امبراطورية ذات صفة إسلامية لا عربية ، والراجح أن الواقعة جاءت وقد تهيأ لها الجو فلم ير فيها أحد شذوذا : لأن جند الترك كانوا عجما مسلمين شأنهم شأن الفرس، وكنا نحب أن نؤيد هذه الواقعة بأشباهها غير أن الأشباه نادرة. ولكن الواقعة على أى حال بدت طبيعية يوم وقعت ، ولم يكن شيء يمنع من تكرارها .

---

(١) نفسه : ج ٤ ص ٣٤٢ عام ١٣٤

(٢) نفسه : ج ٥ ص ٢٨/٢٩ عام ١٥٠

(٣) نفسه : ج ٥ ص ١٠٢ عام ١٨٠

ثم كان تحول جديد أيام المأمون في إشراك الترك فى حروب المسلمين ، وهو أن المأمون اتخذ سياسة جديدة : هى الدعوة إلى الاسلام والترغيب فى خدمة الجيش في نفس الوقت ، وقد كانت هذه السياسة معروفة قديما . فان قتيبة حين استخدم الترك كان بطبيعة الحال يتمنى إسلامهم ، غير أن مثل هذا الاسلام يتخذ في أعيننا ، ان سلمنا به ، لون الحلف والدخول فى تيار السياسة العربية ، أما الجديد في هذه السياسة المأمونية : فهو أن الترك كانوا يدخلون الجيش ويحاربون فى إقليمهم وغير إقليمهم ، وكان هذا الاسلام الحديث يقربهم إلى المرتزقة أكثر مما يقربهم الى الجند المسلمين الذين قدم بهم العهد فى ظل الاسلام والدولة الاسلامية . وكان يقوم بهذه الدعوة إلى الاسلام والجندية : رسل دعاة فارضون ، يستميلون الناس بالفريضة لهم في الديوان . وقد كانت الدعوة للاسلام قديمة ، ولكنها كانت مستقلة كل الاستقلال عن الجندية . والمرجع فى وصف هذه السياسة أربعة أسطر رواها البلاذري ، قال : « وكان المأمون رحمه الله يكتب الى عماله فى خراسان في غزو من لم يكن على الطاعة والاسلام من أهل ما وراء النهر ويوجه رسله فيفرضون لمن رغب فى الديوان وأراد الفريضة من أهل تلك النواحى وأبناء ملوكهم ويستميلهم بالرغبة ، فاذا وردوا بابه شرفهم وأسنى صلاتهم وأرزاقهم . » (ص ٤٢٠ بلاذرى) ويثبت هذا النص ثبوتا جازما أن المأمون هو أب هذه السياسة التركية .

والأسير الشائع أن الأفشين التركى إنما علا نجمة أيام المعتصم (كلف بحرب بابك سنة ٢٢١) (١) . ولكنا يجب أن نعلم أن الأفشين « أظهر الاسلام وشخص إلى مدينة السلام » أيام المأمون (٢) ، وانه كان سنة ٢١٧ قائدا بمصر (٣) بعد أن كان قائدا بيرقة سنة ٢١٦ (٤) .

---

(١) ابن الاثير : جـ ٥ ص ٢٣٤ ، ٢٢١
(٢) البلاذري : ص ٤١٩
(٣) ابن الاثير : جـ ٥ ص ٢٢١ عام ٢١٧
(٤) نفسه : جـ ٥ ص ٢٢٠ عام ٢١٦

ولا بد أن نذكر كذلك أن أشناس التركي كان من قواد المأمون قبل أن يكون من قواد المعتصم ، وأنه كان قائدا من قواده يغزو معه الثغور الرومية (١) .

وإذا أردنا أن نحدد الوقت الذى أوغل فيه المأمون في طريق هذه السياسة : فالراجح أنه إنما اتخذ سبيلها بعد ظفره بنصر بن شبث العقيلي سنة ٢٠٩ وإنزاله قيسا « من ظهور خيولها »(٢) وسوء ظنه بالعرب . وقد كان فى هذا الوقت أيضا محتاجا إلى أن يحتاط للخلافة من الفرس ونزعتهم القومية الجامحة بعد أن رأى في هذه السنة نفسها طاهر بن الحسين يملك من أمر خراسان وتصريف أمورها وتمثيل قوميتها ما يحدثه بأن يستقل بأمرها ، فلم ير المأمون بدا من أن ينهض بالترك ليتنافس الفرس والترك فى إرضائه ، وليشغل الفرس عن الخلافة بأمر ماوراء النهر . وقد كان من طرق الخلافة فى الضغط السياسى على خراسان قديما أن تضطرهم إلى الخذر من الحدود الشرقية .

أما المعتصم الذى جرى القول بأنه أول من استخدم الاتراك حتي قرن اسمه بهم : فانه لم يكن فى حقيقة الأمر إلا المتبع لسياسة افتتحها غيره فأتت نتائجها على يديه ، وقبل هو هذه النتيجة كما قبل تلك السياسة ، ولهذا يقول البلاذري « ثم استخلف المعتصم بالله فكان على مثل ذلك (يعني من سياسة المأمون) حتى صار جل شهود عسكره من جند أهل ما وراء النهر : من السغد والفراغنة والأشروسنة وأهل الشاش وغيرهم ، وحضر ملوكهم ببابه وغلب الاسلام على من هناك »(٣) وهذا نص يدل على شيئين : الأول أن شهود عسكره كان جله من الترك ، وشهود العسكر : هم الجند الذين يستخدمون فى العراق بالذات والذين يرسلون بأمر الخليفة إلى حيث يشاء الخليفة . ولكنهم يعتبرون أين كانوا جيش العراق، وهذا النص

(١) نفسه : حـ ٥ ص ٢١٩ عام ٢٢٥
(٢) نفسه : حـ ٥ ص ٢٢٧ عام ٢١٨
(٣) البلاذرى : ص ٤٣٠

هام لأنه يدل على تنبه المؤرخين إلى وقوع شيء جديد وهو استخدام الترك فى قلب العالم الاسلامى . وقد رأينا أن الترك كانوا يستخدمون أولا فى ثغر الترك ثم أصبحوا يستخدمون فى بعض نواحى خراسان ، إلى أن استخدمهم الخلافة فى العراق ووجههم إلى حيث شاءت من الثغور الرومية مثلا ثم إلى جزيرة العرب نفسها ، موئل العروبة الأول ومهد الاسلام . وهو تدرج فى استخدام الترك أسرعت خطاه أيام العباسيين بوجه خاص ، وأيام أن غلب الاسلام على أهل البلاد المغلوبة. والشيء الهام الثاني الذي يستخلص من النص أن غلبة الدين على أهل هذه البلاد جاء نتيجة لهذا الاستخدام وثمرة من ثماره ، لأن النص حين ذكر استخدام الترك عطف عليه العبارة التى لا بأس من تكرارها « وحضر ملوكهم ببابه وغلب الاسلام على من هناك ».

ونحن مع ذلك نستطيع أن نجد القرائن الكثيرة على أن إسلام الجند الترك لم يكن في الحقيقة أول الأمر إلا قشرة سطحية انطبعت فوق التراث التركي القديم . من هذه القرائن اتهام الأفشين بالزندقة ، ومنها احتفاظ الجند باسمائهم التركية غير المألوفة ؛ فقد رووا أن الأفشين فى بعض حروبه أراد أن يمتحن الصيادلة الذين يتبعون الجيش ، فأتي بورق وكتب عليه أسماء الجند الأشروسنية ، وبعث به إلى الصيادلة فلم يعترف أكثرهم بجهلهم الأدوية ، وبعثوا ما أرادوا منها (١) . ولا نقف عند القصة وإنما نقف عند هذه الأسماء الأشروسنية التي تمسك بها أصحابها ولم يتركوها بالاسلام كما فعل سائر الناس من قبلهم ومن بعدهم .

والواقع أن القيادة الحربية فى عهد المعتصم كانت إلى الأتراك ، فبرزت أسماء تركية ملأت العالم الاسلامى وعظمت هيبتها مثل الأفشين(٢) وأشناس(٣) ومنجكور

(١) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، بيروت ١٨٩٠ ص ٢٤٤
(٢) ابن الاثير : ج ٥ ص ٢٣٤ ، ٢٣٩ عام ٢٢٠
(٣) نفسه : ج ٥ ص ٢٤٧ عام ٢٢٣

قرابة الأفشين[١] وبغا الكبير وأواجن الأشروستي[٢] وبشير التركي[٣] وبخاري خداه وكلهم ترك فيهم من الصغد وأهل فرغانة وأشروسنة وغيرهم .

من كل هذا نرى أن السياسة التي افتتحها المأمون وسار عليها المعتصم كانت تجنيد الأتراك وإدخالهم في الاسلام عن طريق هذا التجنيد ، وليس يعنينا أن نتبين قصد المأمون : أكان حاجته إلى الجند بالذات ، أم كان قصده إلى ما ينشأ عن هذا التجنيد من الدخول في الاسلام ، لأن الأمرين تحققا له ، وكان أولهما طريقا للآخر ، وكان كلاهما عنصرا من عناصر السياسة الاسلامية التقليدية منذ قتيبة ، وسنرى فيما بعد كيف نشر الخلفاء الاسلام فيما وراء النهر .

ولكن الترك دخلوا في بلاط الخلفاء قبل أن يدخلوا في جيوشهم ، ولعل أول من أدخلهم في البلاط الخليفة المنصور ، فانا نجد زهيرا التركي واليا له على همذان مخلصا للخليفة يقتل بأمره رجلا من دعاة أبي مسلم . ونجد في حرس هذا الخليفة نفسه شعيب بن واج[٤]. ثم أدخلهم الخليفة الرشيد في بلاطه كذلك ، ونحن نعرف خادمه خاقان الذي خدمه ثم ابتنى لنفسه دارا بطرسوس دفن فيها المأمون بعد[٥]. ونسمع عن أخشيد الخادم ، خادم الرشيد[٦]، ونعرف كذلك فرجا الرّخّجيّ وكان مملوكا لبنت الرشيد ، فولاه الرشيد الأهواز ، ولكن مثل فرج أسر وهو فتى صغير[٧]، وتربى تربية إسلامية حتى رفعه الرشيد «فوق قدره»[٨]

(١) نفسه : جـ ٥ ص ٢٥٧ عام ٢٢٤
(٢) نفسه : جـ ٥ ص ٢٣٧ عام ٢٢١ عن بغا ثم ص ٢٦٠ عام ٢٢٥ عن اواجن
(٣) نفسه : جـ ٥ ص ٢٤٢ عام ٢٢٢
(٤) نفسه : جـ ٤ ص ٣٥٤ عام ١٣٧
(٥) نفسه : جـ ٥ ص ٢٢٧ عام ٢١٨
(٦) الجهشياري : كتاب الوزراء والكتاب ، القاهرة ١٩٣٨ ص ٢٦٤ /٥
(٧) نفسه : ص ٢٧٠ ، ٢٧١
(٨) نفسه : ص ٢٧١

ليكون ضيعته وآمن عنده . ووجود أمثال فرج كثير معروف قبل عصر الرشيد مثل حماد التركي[١] أيام المنصور ، ولكنهم لم يبلغوا درجة الخدمة عند الخلفاء إلا فى عهد الرشيد . وهى درجة تستمد قوتها من القرب من الخلفاء أكثر مما تستمد قوتها من اختصاص أصحابها . ولنعد الى إشراك الترك فى حروب المسلمين وأنه كان مبدأ سارت عليه الدولة منذ فتح ما وراء النهر ثم توسعوا فيه شيئا فشيئا حتى أصبح الترك جند الدولة ، وهو دور هام فى حياة الدولة الاسلامية فتحه لهم الخلفاء مدة طويلة وحمله الترك أيام المأمون والمعتصم وواصلوا القيام به قرونا طويلة مجيدة بدون انقطاع إذا استثنينا العهد البويهي .

وقد تجاوزت الخلافة فى أثناء هذا الاشراك السنة الفقهية ، فاستخدمتهم أيام فتية قبل أن يدخلوا الاسلام على الأرجح أو بعد أن دخلوه دخولا شكليا ، واستخدمتهم أيام المأمون والمعتصم ولما يتأصل إسلامهم أو يقدم . ولا بد لنا حين نسجل هذه الملاحظات أن نفطن إلى أن رجال السياسة كانوا أكثر مرونة من السنة الفقهية ابتغاء المنافع السياسية التى تتحقق بهذه المرونة ، ولم تكن تلك المرونة قاصرة على المشارقة . فان المغاربة لم يكونوا أقل مرونة . فان عامل الأندلس عاهد أهل قرقسونة حين فتحها على شروط : منها أن « يلتزموا باحكام الذمة من محاربة من حاربه المسلمون ومسالمه من سالموه» وكان أهل قرقسونة مسيحيين[٢].

وقد كانت الشعوب البربرية المجاورة للامبراطوريات الكبيرة منذ القدم تستحب الاشتراك فى الحروب حيث يتيسر لها هذا الاشتراك ، وتعتبره رمزا لسيادتها وكانت الامبراطورية الرومانية تتقبلهم وتشركهم في الغزو، وهكذا فعل الأكاسرة وأباطرة الروم وغيرهم . وهكذا فعل العرب مع الترك وغيرهم مثل الجراجمة

(١) نفسه : ص ١٣٤

(٢) ابن الاثير : ج ٤ ص ١٩٧ عام ١٠٧

فى آسيا الصغرى .

وقد تجاوزت الخلافة العباسية في سبيل هـذا الاشراك أو تخلت راضيـة وكارهة ، أو راضية أولا وكارهة أخيرا ، عن مبدأ العروبة . وجعلت الدولة إسلامية لا عربية ، يقوم بالدفاع عنها من يتهيأ لهم ذلك الدفاع من رعايا المسلمين دون نظر إلى أجناسهم .

* * *

— ٤ —

السياسة الدينية

لايزال التجانس الفكرى يقرب بين الشعوب ، وقد كانت الشعوب المتحضرة تكسر حدة جيرانها البرابرة عن طريقين : طريق السيف ، وطريق إدخال الشعب البربري في الحضارة . وكان الدين الواحد يقرب بين الأجناس المختلفة وكان نشر الدين بين أهل الحدود المهددة بمثابة درع حصين . وجرى الرومان والروم والعرب ودول العصور الوسطى على هذه السياسة .

كانت هذه السياسة ممكنة بالقياس إلى الترك أكثر من إمكانها بالقياس إلى الروم ، لأن دين الترك يختلف عن دين الروم في قدرته على الاحتفاظ بكيانه أمام الاسلام ، كان دين الترك الوثني ضعيفا كباقى الديانات الوثنية التى ابتلعها الاسلام أيام نشأته في جزيرة العرب ، على حين غص حلقه بقبائل قليلة من اليهود والنصاري ، فدين الترك قليل الحصانة لم يحس الاسلام منه مقاومة لا تنثني وعداوة لا مندوحة فيها من السيف . وكان من صالح العرب أن يختلطوا بالترك ليلتقي الدينان وجها لوجه حيث تكون الغلبة لأقدر الدينين على الدفاع عن نفسه ، وحيث ترهف نفوس المقهورين لصوت دين انتشر فى نصف الأرض تقريبا ، شأن أديان الغالبين . والواقع

أن الديانة التركية ظلت تتراجع أمام الاسلام من ناحيـة وأمام البوذية من ناحية أخرى ، حتي قال بعض المؤرخين : إن الدين عند الترك لم يكن إلا رمزاً سياسيا ولم يكن تفكيراً عميقا يثير الجدل الشديد .

أما الدين الغالب علي الترك فيما وراء النهر : فاننا نرجح أنه كان دين الفرس . فانا نعرف أن المانوية ، حين اضطهدها الأكاسرة منـذ ظهورها فى أواخر القرن الثالث ، هاجرت إلى أواسط آسيا وانتشرت هناك(١). ونحن نعلم من المصادر العربيـة أن بلخ كانت مقر بيت نار كبير يعرف بالنوبهار وأن الفـرس كانوا سدنته(٢).

فاذا تتبعنا الدعوات إلى الاسلام ، وجدنا أن مصادرنا العربية لا تذكر دعوة إلى الاسـلام استجيبت أيام قتيبة أو قبـله إلا ما قيل من أن قتيبـة أحرق بيوت الأصنام فى سمرقند فأسـلم «منهم خلق»(٣). ولـكن الواقع أن الذين أعانوا قتيبة أيام الوليد ثم الذين استظهر بهم حين عصا أول خـلافه سليمان(٤) لم يكونوا مسلمين (لأنهم عصوا وأطاعوا مرات ولأنه لم يذكر فى صلحهم إسلام) . فاذا انتقلنا إلى أيام عمر بن عبد العزيز وجدنا تطبيق القاعدة الفقهية القائلة بوضع الجزية عمن أسلم يحدث فى خراسان مسارعة إلى الاسلام إسراعا اتهم أصحابه أنهم إنما رغبوا فى الهرب من الجزية . وإذا كانت ما وراء النهر من خراسان فقد أصاب أهلها من المسارعـة إلى الاسـلام ما أصاب أهل خراسان (٥)، وأحس الترك من ناحية أخرى بأن إبطال الغزو الذى أمر به عمر فاتحة عهد تفاهم (فان عمر كتب إلى والى خراسان :

(١) Albertini ، الكتاب المذكور ص ٢٧٥
(٢) البلاذرى : ص ٤٠٠
(٣) نفسه : ص ٤١١
(٤) نفسه : ص ٤١٢
(٥) الطبرى : ج ٨ ص ١٣٤ عام ١٠٠ ، ابن الاثير : ج ٤ ص ١٥٨ عام ١٠٠

«لا تغز بالمسلمين . فحسبهم الذي قد فتح الله عليهم» (الطبرى: حـ ٨ ص ١٣٩ سيرة عمر) ، وكان من بوادر اقتناعهم بعدل المسلمين أنهم شكوا إلى الخليفة غدر قتيبة فى الاستيلاء على سمرقند(١). وكان مما يزيد اقتناعهم : أن عمر كتب إلى والى خراسان « لا تهدموا كنيسة ولا بيعة ولا بيت نار صولحتم عليه» ، وإن كان قال له «لا تحدثن كنيسة ولا بيت نار»(٢). وكان من شأن هذا التفاهم تهيئة الجو للدعوة إلى الاسلام ، والواقع أن عمر لم يتقدم إليهم بالسيف: فقد أبطل الغزو وإنما تقدم إليهم بالدعوة إلى الاسلام ، فكتب « إلى ملوك ما وراء النهر فأسلم بعضهم»(٣)،وقد لا نستطيع أن نحدد هذا البعض وأن نتحرج من هذا الغموض فنشك فى إسلام هذا البعض. ولكن الحرج لا معنى له لكثرة القرائن على الثقة بسياسة العدل. وهى سياسة طبقت من غير شك على خراسان وما وراء النهر بالذات . فان عمر كتب إلى صاحب الخراج « وليس من ثغور المسلمين ثغر أهم إلى ولا أعظم عندي من ثغر خراسان » (٤) وهى أهمية تفهم من ناحية نشر الاسلام أكثر مما تفهم من الناحية الحربية .

وإذا كان يزيد بن عبد الملك قد سار على سياسة مالية رجعية عامة بالنسبة لسياسة عمر فانه ، فيما يخص خراسان ، طبق هذه الرجعية تطبيقا لينا بعض الشيء وذلك أن والى يزيد على خراسان (سعيد خدينة) طالب السغد بالمتأخر من الضرائب . والراجح عندنا أن المتأخر كان من «تخافيف» عمر أو من رفقه على الأقل ، فاختلف هو والسغد واستؤنفت الحرب . وأسف الناس على عهد عمر ، ولكن سعيدا كان لينا : لأنه كان إذا بعث سرية فأصابوا واغتنموا ردالسبى

(١) ابن الاثير حـ ٤ ص ١٦٣ عام ١٠١
(٢) الطبرى : حـ ٨ ص ١٤١ عام ١٠١ فى سيرة عمر بن عبد العزيز
(٣) البلاذرى : ص ٤١٥
(٤) الطبري : حـ ٨ ص ١٣٩ : في سيرة عمر بن عبد العزيز عام ١٠١

وعاقب السمرية (١)، ولأنه كان لا يريد أن يتفاقم العداء بين المسلمين وأهل ما وراء النهر ، ولأنه كان يعتبر السغد «بستان أمير المؤمنين» فلاينبغي تخريبه ولا إبادة أهله . فيقول للجند «قد هزمتموهم أفتريدون بوارهم» (٢)

ثم تجددت الدعوة للاسلام مرة أخري أيام هشام بن عبد الملك وولاية أشرس علي خراسان : وكان «فاضلا خيرا» وكانوا «يسمونه الكامل لفضله» . فأرسل أشرس إلى أهل سمرقند وما وراء النهر يدعوهم إلى الاسلام علي سنة ابن عبد العزيز: أي علي أن توضع عنهم الجزية ، ولم يخرج الدعاة إلا بعد أن اشترطوا الوفاء بالوعد. فدعا الرسل « أهل سمرقند ومن حولها إلى الاسلام علي أن توضع عنهم الجزية فسارع الناس » وبنوا المساجد . فلما ضج عمال الخراج من نقصان الدخل ، ورفعوا الأمر إلى والى خراسان ، وضع الوالى شرطا لا غبار عليه في الظاهر : وهو أن يفتش عن إسلام من أسلم : فمن « اختتن وأقام الفرائض وحسن إسلامه وقرأ سورة من القرآن » وفوا له بالشرط ورفعوا خراجه ، ولا بد أن تطبيق هذا الشرط كان علي شيء من التعسف شأن التفتيش دائما ، ولم يلبث والى خراسان أن ألغى شرط الدعاة وأعاد الجزية على من أسلم ، فقامت قائمة هؤلاء المسلمين المحدثين وانضم إليهم الدعاة وخرج كثير منهم عن سمرقند واجتمعوا معتزلين . فكانوا سبعة آلاف وانضم إلى الدعاة جماعة من فرسان المسلمين مثل ثابت قطنة ، ولم يكن بد من الحرب ولكن الحكومة احتالت عليهم وأظهرت الاستجابة إلى مطالبهم : حتي إذا تفرقوا أخذت الرؤساء وتتبعتهم ، فكان من نتيجة هذا الموقف أن كفرت «الصغد وبخارى واستجاشو الترك» وكانت الفتنة عظيمة لتدخل الترك البعيدين . وكانت حرب قاسية لأن الناس ظلوا يذكرون يوما من أيامها يعرف بيوم العطش (٣) . واستولى

(١) ابن الاثير : جـ ٤ ص ١٧٩/١٨٠ عام ١٠٢
(٢) الطبري : جـ ٨ ص ١٦٥/١٦٦ عام ١٠٢
(٣) ابن الاثير : جـ ٤ ص ٢٠٢/٣ عام ١١٠

الصغد وغيرهم على كل ما وراء النهر ، وارتد أهل كردر (١).

وهكذا خرجت الدولة على سياسة الدعوة للاسلام بشرائطها اللينة المريحة فكان ترك اللين سببا فى فتنة كلفت الدولة دماءا وحروبا كثيرة .

ولم تعد الأمور إلى ما كانت عيه إلا بعد أن مل الطرفان الحرب وتغيرت السياسة العربية . وولى نصر بن سيار فعمد نصر إلى سبب هذه الثورة والحرب : وهى الجزية ، فأقر فيها حكم الاسلام ، فلم تمض إلا جمعة حتي أتاه ٣٠ ألف مسلم كانوا يؤدون الجزية عن رؤوسهم و٨٠ ألفا من المشركين كانت ألقيت عنهم. فحول ما كان على المسلمين إليهم ووضعه عن المسلمين (٢) . وقد كان حلا موفقا لأنه ضمن للداخلين فى الاسلام أن خزانة الدولة لن تنظر إليهم فيما بعد نظرتها إلى مغتصبين . وهكذا عادت خراسان وما وراء النهر ، سنة ١٢٠ إلى السياسة التقليدية اللينة .

وأمن الصغد جانب المسلمين ، فلم تمض سنتان حتي صالحوا ، ونالوا شرط الدعاة وشرطا آخر هو ألا يعاقب من كان مسلما فارتد ، وفضل نصر أن يتسع لهم الدين على أن تتسع لحربهم سيوف المسلمين ، وأجاب من أنكر هذا اللين فقال « لو عاينتم شوكتهم في المسلمين مثل ما عاينت ما أنكرتم ذلك »، وأرسل ليستشير هشاما الخليفة فأقر رأيه (٣). وكان لهؤلاء الترك أن يعتنقوا الاسلام على الوجه الذى يحبون فى ظل التسامح الدينى ، والذي لا شك فيه أن المسلمين الأتراك عادوا إلي مساجدهم الأولى وبنوا غيرها ، وإن لم تشر إلى ذلك المصادر . وهكذا بدا أن السياسة التى استقر عليها الأمويون آخر الأمر هى سياسة عمر بن عبد العزيز .

ولم يكن أهل الصلاح والمثل الطيب الذين يحببون الاسلام الى الترك ، قليلين،

---

(١) نفسه : ج ٤ ص ٢٠٥ عام ١١٠
(٢) ابن الاثير : ج ٤ ص ٢٤٣ عام ١٢١
(٣) نفسه : ج ٤ ص ٢٥٠ عام ١٢٣

فان أحد من سكنوا سمرقند أيام قتيبة : الضحاك بن مزاحم هو صاحب التفسير (١). وكذلك كان يعيش ببلخ فى آخر القرن الثاني زاهد مجاهد هو شقيق البلخى الزاهد قتل فى غزاة ، وكان شيخ زاهد آخر معروف هو حاتم الأصم ، وحج شقيق مرة وفي صحبته ٣٠٠ مريد ، وكان شيخ خراسان (٢) . ومن أتقياء هذه الناحية أيضا العلماء : الفضيل بن عياض الزاهد ، وكان مولده بسمرقند وانتقل الى مكة فمات بها (٣).

فلما قامت الدولة العباسية سارت على الأرجح على هذه السياسة المرسومة إلى زمن المأمون ولم تحذف من أصولها شيئا : لأن المصادر لا تذكر ذلك ولا نلاحظ إلا شيئا من الشدة على الناكثين وإلا المثابرة علي الغزو . فاذا ولى المأمون ارتسمت في عهده السياسة النهائية : سياسة الشدة فى الحرب والدعوة للاسلام والترغيب فى الجندية ، وأخذ المأمون بكل طرف من أطراف هذه السياسة معا ، كأنما وفق بين طرائق الدبلوماسية الاسلامية القديمة جميعا ، فانه ألح عليهم «بالحروب والغارات» ثم «كان مع تسريته الخيول إليهم يكاتبهم بالدعاء إلى الاسلام والطاعة والترغيب فيها» (٤) «وكان يكتب إلى عماله علي خراسان في غزو من لم يكن علي الطاعة والاسلام من أهل ما وراء النهر» وهذا هو العود الى سياسة الفتح مع الأخذ بالترغيب فى الاسلام . «وغلب الاسلام على من هناك» بسياسة الدعوة .

* * *

خاتمة

ولا نستطيع أن نختم المقال بخير مما روي البلاذرى ، فانه فطن إلى ما أدت

(١) البلاذري : ص ٢١١
(٢) ابن الاثير : ج ٥ ص ١٤٢ عام ١٩٤
(٣) ابن الاثير : ج ٥ ص ١٢٠ عام ١٨٧

إليه هذه السياسة العربية من توفيق ، وسجل أن أهل هذا الثغر دخلوا الاسلام ، وأصبحوا حماته « يغزون من وراءهم من الترك » فيصلون إلى نواحي بعيدة ، وهو أكبر توفيق تطمع فيه دولة تريد أن تحمى حدودها وأن تنشر حضارتها .

وقد ذكر البلاذرى كذلك حقيقة أخري ـ أدى إليها الاشراك الذي ذكرناه ـ وهى أن « جل شهود عسكر » الخلافة صار من الترك ، وهى واقعة لم تكن لتتهيأ لولا أن هذه السياسة العربية المرنة قد مهدت لها تمهيدا طويلا . فلم يكن استخدامهم كاستخدام المرتزقة ، ولا كان ابتداء سياسة مبتكرة دفعة واحدة فى كل نواحيها.

ولم تكن هذه النتائج ممكنة لو أن العرب غلبوا جانب السيف ولم يدعوا سبيلا إلى التفاهم .

ولكننا لم نرد من وراء هذا البحث عرض هذه النتائج وبيان مقدماتها فحسب، وإنما أردنا فوق ذلك أن نبين ناحية من سياسة العرب في حماية حدودهم : وهى نظام الحلف الذى يفرضونه علي جيرانهم ويؤيدونه بالغزو السنوى استبقاءاً لطاعة الأحلاف واستظهارا بالقوة أمام من وراء الأحلاف من أعداء . ونحن نعلم أن هذا النظام طبق علي أرمينية فلم يأت بمثل هذه النتائج . وأنا أزعم كذلك أنه طبق أيضا في أفريقية أيام عقبة بن نافع فأتى بأكبر مما تهيأ لهذا النظام من نتائج . ولكل حالة من هاتين الحالتين تفسيرها : لولا أن هذا المقال مقتصر علي ترك ما وراء النهر .

م . ع . شعيرة
مدرس بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول
بالاسكندرية